إيف إنسلر

الاعتذار

«كتاب عبقري
على نحو مزلزل»

- «التايمز»



إيف إنسلر

الاعتذار

«كتاب عبقري على نحو مزلزل»





الكرمة
دار الكرمة للنشر والتوزيع

إلى كل امرأة ما زالت تنتظر اعتذارًا.

سئمتُ الانتظار. أبي ميت منذ مدة طويلة. لن يقول لي الكلمات أبدًا. لن يقدم الاعتذار. لذلك، لا بد أن يكون هذا الاعتذار متخيَّلًا. لأن في مخيلتنا فحسب، نستطيع أن نحلم عبر الحدود، وأن نعمِّق السرد، وأن نبتكر نتائج بديلة.

هذه رسالة توسُّل، واستحضار. حاولتُ أن أسمح لأبي بالحديث معي كما كان سيتحدث. ومع أنني كتبتُ الكلمات التي احتجتُ إلى أن يقولها لي أبي، كان عليَّ أن أفسح له المجال ليعبر عن نفسه من خلالي.

هناك عديد من الأمور بشأنه، بشأن تاريخه، لم يشاركني فيه قَطُّ، لذا اضطررت إلى أن أستحضر كثيرًا منه أيضًا.

هذه الرسالة هي محاولتي لإمداد أبي بالإرادة والكلمات ليَعبر حدود الاعتذار ويتحدث بلغته، لكي أستطيع أخيرًا أن أنال حريتي.

عزيزتي «إيفي»،

كم هو غريب أن أكتب لكِ. هل أكتب لكِ من القبر، أم من الماضي، أم من المستقبل؟ هل أكتب كما لو أنني أنتِ، أم كما تريدينني أن أكون، أم كالشخص الذي أنا عليه بالفعل تحت تأثير فهمي المحدود؟ وهل هذا يهم؟ هل أكتب بلغة

لم أتحدث بها أو أفهمها قَطُّ، وخلقتِها أنتِ داخل عقلينا لتخطي الفجوات والفشل في التواصل؟ ربما أكتب كما أنا، على حقيقتي، كما حررتِني بشهادتك. أو ربما لست أكتب هذا على الإطلاق لكنني أستخدم ببساطة، كوسيلة لخدمة احتياجاتك ونسختك الخاصة عن الأمور.

لا أتذكر أنني كتبت لكِ رسالة من قبل. نادرًا ما أكتب الرسائل. بالنسبة إليّ، كانت كتابة رسالة، والتواصل مع الآخرين، تصرفات تمثل علامة على الضعف. كتب الناس رسائل لي. لم أكن لأسمح لأي أحد أن يعرف أنه مهم بما يكفي لأكتب له رسالة. كان هذا سيقلل من شأني ويضعني في وضع غير ملائم. حتى إن قول ذلك لكِ يبدو غريبًا. ليس هذا شيئًا قد أعرفه أو أقوله عادةً لو لم تدخلي ذهني. لكنني لن أجادل في الأمر. إنه يبدو صحيحًا.

دائمًا ما كتبتِ لي رسائل. وجدت هذا الأمر مميزًا، ومؤثرًا على نحو غريب. عشنا في المنزل نفسه، لكنك كنت تكتبين لي، يحاول خطُّك، خطُّ الفتاة الصغيرة، الالتزامَ بخطوط مستقيمة، لكنه يتجول في جميع أنحاء الصفحة. بدا الأمر كما لو أنكِ تحاولين التواصل مع جانب ما مني، مع جزء لم تستطيعي العثور عليه في لحظات صراعنا الملتهبة، كما لو أنكِ تحاولين، من خلال الشِّعر، أن تتوسلي إلى ذات سرية جعلتُها متاحةً لكِ فيما مضى. عادة ما كتبتِ رسائل اعتذار.

من المناسب تمامًا أنكِ تريدين الآن رسالة اعتذار مني. كنت دائمًا تعتذرين، تتوسلين من أجل الغفران. لقد اختزلتُك إلى نغمة يومية مهينة تردد: «أنا آسفة».

ذات مرة أرسلتكِ إلى غرفتك من دون عشاء وأجبرتكِ على البقاء هناك، بالقدر الكافي لتفهمي سلوكك السيِّئ وتعترفي به. كنت عنيدة في البداية، هادئة لمدة أربع وعشرين ساعة. قلقت أمك. ثم لا بد أنكِ شعرت بالجوع أو الملل، فكتبت لي رسالة، على قطعة ورق مقوى، جاءت من المغسلة مع قمصاني. مرّرتها أسفل باب غرفة نومي. كانت استعطافًا دراماتيكيًا. كانت قائمة. كنت دائمًا مهتمة بالقوائم. أرى الآن أنكِ احتجت إلى فهرسة الأشياء، وجعلها منطقية بنوع من الحساب الأدبي.

كانت قائمة من الأشياء التي تعلمتها، والأشياء التي لن تفعليها مرة أخرى. أتذكر أن الكذب كان العنصر الأول. لن تكذبي مرة أخرى. علمت دومًا - حتى وأنا أطاردك يوميًا وأجعلك تصدقين أنكِ كاذبة حقيرة - أنكِ أصدق فتاة صغيرة عرفتها على الإطلاق، مع أنني لم أعرف كثيرًا من الفتيات الصغيرات. احتقرت الأطفال؛ كانوا صاخبين، وفوضويين، وسيِّئي السلوك. كان عمري أكبر بكثير من أن أنجب أطفالًا. أنجبتهم فقط ليحملوا إرثي. لكنني أنحرف عن الموضوع. أخرجتُكِ رسالة الورق المقوى تلك - بكتابتك

المُلحَّة بـ«القلم السحري» الأرجواني، والأزهار المائلة التي رسمتها على الحواف ـ من الغرفة، وأتساءل الآن إذا كان هذا هو سبب استمرارك في الكتابة، كنوع من جواز سفر إلى الحرية.

منذ أن غادرتُ عالم الأحياء أصبحتُ عالقًا في أكثر منطقة موهنة للعزيمة. إنها تشبه كثيرًا ما يصفه الناس حين يتحدثون عن جحيم «الليمبو»(1): خواء، نسيان. «الليمبو» ليس مكانًا خارجيًا تمامًا. على العكس، فأنا أساسًا في اللامكان. طافيًا، طوّافًا، بلا مرسى. لا يوجد شيء هنا، لا شيء ليُرى، لا أشجار، لا محيط، لا أصوات أو روائح، ولا ضوء. ليس ثمة مكان بالمعنى المعروف للمكان، لا تجذُّر، لا شيء للتمسك به. لا، لا شيء سوى انعكاس ما يحيا في داخلي.

ما الجحيم؟ الجحيم هو النفس

هذه المقولة لـ«إليوت». ربما لا تعرفين أنه كان شاعري المفضل. عادة ما تأتيني كلماته في هذا «الليمبو». أطوف في دوامة هنا منذ واحد وثلاثين عامًا، بمقياس زمنك، لكن الغريب أنه لا يوجد زمن حيث أنا. فقط خواء معذِّب، فضاء مبتلِع لا نهاية له، شاسع بشكل مرعب، وخانق تمامًا في الوقت نفسه.

غادرتُ عالم الأحياء محملًا بكثير من الضغائن والأحقاد. حتى على فراش الموت، كانت ضراوة سخطي أقوى من السرطان الذي أهلك جسدي. كان غضبي عاتيًا للغاية، إلى درجة أنه كان قادرًا على أن يصارع المورفين والهذيان، ويؤجّجني لأبتكر عقوباتي الأخيرة وأنفذها. وأمك المسكينة، ماذا كانت لتفعل؟ أرعبتها لسنوات عديدة، أشبعها ضربًا بصخبي وتفضُّلي، وتهديداتي، إلى درجة أنها صارت شريكةً متفانية ومجبَرة بالترويع على الإذعان. حاولت أن تجاريني. أخبرتني أن هذه قد لا تكون اللحظة المناسبة لاتخاذ مثل هذه القرارات الصارمة. فعلت كل شيء، لكنها لم تخبرني أني فقدت عقلي.

كانت أفكاري وأنفاسي الأخيرة مشبعة برغبة في الأذى، برغبة في خلق معاناة طويلة الأمد. ربما لا تعلمين هذا، لكن في تلك اللحظة الأخيرة، أصررت على أن تشطبك من وصيتي. لن ترثي شيئًا.

- لا شيء!

قلتُها بقوة عظيمة. حتى في حالتي شديدة الضعف، أعطاني هذا الانتقام حياة. كانت تلك هي فرصتي الأخيرة لإلغائك، لاستئصالك، لمعاقبتك.

وحين طلبت مني أمك أن أعيد النظر في الأمر، أصررت

على أنكِ أنتِ من جلبت هذا لنفسك. لماذا سأترك أي شيء لطفلة كانت شديدة العناد والعقوق؟ أحنقني تحدي أمك أكثر، وأصبحتُ أشدَّ حبًّا للانتقام، محاولًا أن أمحو كل شيء، حتى شخصيتك. أجبرتها على أن تقطع وعدًا بأنه مهما أخبرتِها بعد رحيلي، فلن تصدقك، كما كان أمرًا راسخًا لسنوات عديدة ماضية أنكِ كنت كاذبة جريئة ووقحة. كاذبة. أجبرت أمك على الالتزام في الأساس بعدم الثقة والشك بكِ إلى الأبد. وبهذا المعنى، أجبرتها على أن تقضي عليكِ كما قضيت عليكِ. أجبرتها على تفضيل زوجها على ابنتها. لكن هذا الأمر لم يكن بجديد. كانت مدرَّبةً بشكل جيد على تلك التضحية. لقد طالبتها بذلك الأمر طوال حياتك. وعرفت، حق المعرفة، كم احتقرتْ نفسها للموافقة على ذلك. رأيت، على مر السنوات، الطريقة التي قوضت بها احترامها لنفسها كأم، محوت ثقتها وصوتها، جعلتها تشعر بالضعف، حتى إنها لم تعد قادرة على حب نفسها أو التعرف على نفسها من بعيد، ومع ذلك كنت لا أزال مصرًّا.

قضيتُ الفترة الأولى، التي شعرتُ أنها سنوات في مملكة الموت هذه، أطوف في حلقة لانهائية، تتألف من جميع الخيانات وخيبات الأمل، ومن كل الطرق التي مارس بها الزملاء والأطفال ومن يُسمَّون بـ«الأصدقاء»، غباءهم وضعفهم، مستعيدًا كل بغض مبرَّر ومنتزِعًا كل انتقام متخيَّل. وبالطبع، كنتِ على رأس القائمة.

غادرتُ العالم وأنا في غاية السخط عليكِ، إلى درجة أنني عاقبتك برفضي حتى لأن أدعك تعلمين أنني أحتضر. لن أطلبك لأقول وداعًا. أردت أن تكوني مجروحة ودامية بشظايا سخطي، حتى تُجبَري على حملي في كل مكان، نازفة بالذنب واليأس، متسائلة لبقية حياتك لماذا لم تكوني قَطُّ عند حسن الظن، لماذا لم تصبحي قَطُّ الابنة التي توقعتها أن تكون.

عازمًا على تركك من دون خاتمة أو نهاية، لم أخطط لتأبين أو جنازة أو أسمح حتى بها. وجدتها عروضًا مبتذلة، ومثيرة للشفقة، لمشاعر لا معنى لها ولا جدوى منها. وعلاوة على ذلك، إذا حزنت عليّ، فهناك احتمال كبير أن تعتقيني. كان الكتمان هو القوة الوحيدة التي امتلكتها في تلك اللحظة، الوسيلة الوحيدة للاستحواذ على وجودك، الوسيلة الوحيدة لجذب انتباهك والإبقاء عليه.

بعد موتي بأيام قليلة، قبل أن أدخل هذه المملكة، تجسست عليكِ وأنتِ جالسة على أرضية خزانتي في فلوريدا، تضغطين سترتي الكشمير الصفراء القديمة على وجهك. في البداية لم أفهم ماذا كنت تفعلين، لكن بعد ذلك بينما تأملتك، أدركت أنكِ تتشممينني، تتشممين ما بقي مني، تستروِحين عبقي وعطري، تحاولين إيجاد مكان لإيواء فجيعتك. ومع أنني لم أقصد، إلا أن ذلك حرك مشاعري.

أعادني إلى زمن كانٍ عاطفيًا بيننا، زمن مُظلًل بمودة تكاد لا تُحتمل. أنتِ، على أرضية خزانتي، تحاولين إيجادي، إيجاد ذلك الحنان، أوقدتِ في داخلي موجة من الحزن والفقد - ثم رحلتُ. رحلت عن عالمك، رحلت عن الجمال، رحلت عن إمكانية الخلاص. ألقيت في تكرار مضطرب من الانتهاكات والمظالم.

يقولون بما أنكَ تحيا فسوف تموت. وصحيح أنه بمُضي الوقت أصبح انفعالي مدمرًا. كانت أمي تحذِّرني: «الغضب سُم تمزجه لأصدقائك لكنك تتجرعه بنفسك»، بما أنني كنت غاضبًا دائمًا لسبب غير مفهوم. وبعد ذلك تحوَّل حنقي، منظومتي بأكملها متعفنة ومشبعة بهيبة مقيتة. كان الأمر كما لو أن السخط انقلب على نفسه، يفترس روحي المكروبة ويخنقها في تحالف من مشاعر الندم، واللوعة المعذِّبة، والشكوك الحادة، واتهام الذات الموجع. لم تكن هناك حركة إلى الأمام. لم تكن هناك عودة إلى الخلف. لا مفر. لم تكن لديَّ اللغة ولا الإرادة ولا الفهم لأتحرر، مشلول في هذه المنطقة من «الليمبو».

أعلم أنني كنت ذلك المتهكم الذي استهان بهراء الحياة الآخرة. لكن ما الذي كنت أعرفه حقًا عن أي شيء؟ وحتى إنني لم أكن لأسمي هذه بالحياة الآخرة. إنها ليست آخرة لأي شيء لكنها تكملة. بهذا المعنى، الموت ألم مبرح

ولانهائي. أو ربما هذا الموت، كان مخصصًا لي. أتخيل آخرين مجنَّحين بمقاصدهم النبيلة في مناطق أكثر إشراقًا.

إذا كنت قد تعلمت أي شيء هنا، وقد كان من الصعب تعلُّم الكثير بما أن عقلي مشوَّش بسبب الارتياع، ما اكتشفته أن حل الصراعات مهم وأنت على قيد الحياة، بما أن كل الأعمال المُعلقة تتبعك إلى العالم الآتي وتحدد حالة وجودك. كل خطأ تسببتَ به في حياتك، كل أذى لم تتحمل مسؤوليته، يصبح نوعًا من مادة روحية لزجة، مادة خبيثة تبني سجنك. إنه قفص، لكنه بداخِلك، وحتى إنه أشد استحالة ومأساوية. أنت عالق داخل ذاتك، مُمتص داخل وسخ الهوس الأبدي بالذات. ربما كنت ستصرخ لكن الوحل سميك للغاية لكي يسمح بنفاذ صوت. لا توجد راحة.

لذا، أشكرك، «إيف»، لاستدعائي، لمنحي هذه الفرصة كي أتعامل مع أفعالي المروِّعة. أفهم أنه ما من ضمانات لأنني سأتحرر من هذا «الليمبو» المعذِّب، لكن عرضكِ بتلقي هذا الاعتذار قد غيَّر هذا المشهد اليائس بالفعل.

أدرك أنكِ واضحة في غايتك. إن عمق مهمتك وإخلاصها والحاجة إليها جلية وقوية. أفهم أنكِ تطلبين مني أن أتقدم باعتذار. لا بد أن أقول إن هذا موضوع غريب وغير طبيعي بالنسبة إليَّ. لا أتذكر اعتذاري عن أي شيء قَطُّ. في الحقيقة، حُفِر بداخلي أن الاعتذار كان فضح العجز، ووضع

نفسك في موقف ضعف.

أتصور أن ضعفي هو في الحقيقة ما تحتاجين إليه مني بالضبط. ربما كان هو ما احتجتِ إليه دائمًا. سأبذل قصارى جهدي كي لا أبرر أفعالي وكي لا أجعلها منطقية. سأحاول بدلًا من ذلك أن أجري محاسبة لأفعالي ونياتي. ليس القصد من الحكي استدرار التفهم أو الغفران. إنه اعتراف بالمعنى الأعمق. إنه من دون شك أمر أُفضل أن أبقيه مخفيًا عنك، عن الله، عن نفسي. لكن هذه هي اللحظة التي أبذل فيها نفسي من دون تحفظ، من دون تبرير، لهذا الحساب.

لقد سألت نفسي، ما الاعتذار؟ إنه تواضع. إنه استسلام واعتراف بالأفعال الخاطئة. إنه فعل يتعلق بالحميمية والتواصل، ويتطلب قدرًا كبيرًا من البصيرة ومعرفة الذات. بالتأكيد سأفشل في الوصول إلى تعريف ما.

هذا الاعتذار يتطلب وقتًا. لا يمكن استعجاله. لحسن الحظ، تدربت - هنا، بلا نهاية - على استحضار جرائمي وإعادة صياغتها، وإعادة تمثيل التفاصيل ذهنيًا. أعلم أنكِ قلت إن الاعتذار يجب أن يكون مستفيضًا ولا يمكن الوثوق إلا في صدقيته ورصده للتفاصيل. لقد بذلت قصارى جهدي. اتبعت إرشاداتك شديدة الصرامة: أن أقر بما فعلت على أنه جريمة، أواجه إلى أي مدى أثَّرت بكِ أفعالي وانتهاكاتي وحطمتك، أنظر إليكِ باعتبارك إنسانًا. أحاول أن أعاني

أو أحس بما شعرت به في أعماقك، أشعر بالندم العميق والأسف على أفعالي، وأخيرًا، أتحمل مسؤولية أفعالي ببذل جهد مكثف كي أفهم ما الذي جعلني أرتكب ما فعلته.

سوف أحتاج إلى العودة في هذه الرسالة لتحديد جذور سلوكي. سأكون صادقًا بقدر ما يمكن بالنسبة إلى شخص مخادع سابق. سأحاول المُضي من دون دفاعية أو رثاء للذات، بما أنني أعرف أن أيًا منهما لن يقدم مزيدًا من الحل أو التوضيح.

لا يعتقد كثير من الأحياء أنهم على علاقة مع الأموات. كنتُ أحدهم، مختبئًا في الوهم، أو ربما الأمل، أن ما مضى قد مضى. إننا نقضي بعض الوقت كمخلوقات من لحم ودم ونموت ونتعفن أو نُحرق في الأثير.

يشتاق الأموات للأحياء. من خلال الأحياء فحسب، من خلال أعمق خيالاتهم وتعاطفهم، يمكن أن يتعرف الأموات على أنفسهم ويمكن تحريرهم. وإذا كان الأحياء قادرين على الوصول إلى حبهم للأموات وراغبين في ذلك، قادرين على الوصول إلى غضبهم على الأموات، أن يكونوا على علاقة بالأموات وأن يدخلوا في حوار حقيقي معهم بصورة جوهرية، فسيقوم الأموات ويتكلمون. ظللنا مقيمين ومختبئين داخل عائلاتنا وأحبائنا، أولئك الذين آذيناهم وأولئك الذين رعيناهم. نحن هناك بين جنبات جدران

المنازل القديمة وصمت المساء، داخل اللحظات الاحتفالية، الشعائر وطقوس الولادات وحفلات الزفاف والجنازات وأي مكان يتوق الأحياء فيه إلى شهادة الأموات واستحسانهم. نحن هناك مثل خلية خاملة في مجرى الدم، تنتظر أن تتحفز بوفاء الأحياء، باحتياج الأحياء إلى الفهم والوصول إلى حل حاسم. هناك، نتوهج بكرم الأحياء حين يتذكرون ويعتزون ويجادلون ويصارعون ويستعيدون.

لا يفاجئني أنكِ أنتِ، «إيفي»، التي استدعيتني للعودة. أنتِ، التي كنت مستعدة وقادرة على احتواء أسفي وحزني حين لم أستطِع المجازفة بالاقتراب منه، وذرف دموعي حين كنت جامدًا، والمطالبة بجوهر روح قد خنتها واحتوائها ومحاولة معرفتها.

أنا متأكد أنك متفاجئة لرؤية أنني أستطيع أن أكتب، بل وأكثر لاكتشاف كيف أكتب، اللغة التي أتحدثها. بصراحة، لقد فاجأني ذلك. أتصور أنها لغة أكثر رسمية وعاطفية مما كنت تتوقعين. لكن ما لا تعلمينه (أو ربما تعلمينه في أعماقك)، أنني حلمت أن أكون كاتبًا. كاتبًا أو حاخامًا. حلمت بحياة منعزلة مفعمة بالتأمل والدراسة والتفكر، حياة مفعمة بالفلسفة واستيعاب الأسئلة العظيمة عن المعنى والمادة.

حلمتُ بطرق عديدة بالحياة التي عشتِها. وإذا اغتنمتُ أي عزاء في التفكر في عواقب أفعالي المشينة، أتصور

أحيانًا أنه ربما كانت أحلامي غير المتحققة هي التي سكنت بداخلك وألهمت مصيرك. ليست هذه محاولة لانتزاع الفضل في من تكونين أو في ما أصبحت عليه. لقد صنعت حياتك، بكل مرحلة صعبة منها. وأعلم أن قدرًا كبيرًا مما أنتِ عليه لم يكن يتعلق كثيرًا بالبناء بل بإعادة البناء، إعادة تجميع شظايا ذات كسَّرتُها وفككتُها قسرًا وبصورة استراتيجية (سواء بوعي أو بلا وعي). أنا مدرك على نحو مأساوي لما كنت ستصبحين عليه، واثقة، مطمئنة لذاكرتك وذكائك، سعيدة، تعيشين داخل جسدك. رأيتُ الشخص الذي كنتِه قبل أن أفعّل تدميري.

وربما لهذا السبب كان عليَّ أن أؤذيك بشدة، أن أجعلك تعرجين من عند الركبتين منذ البداية. من المستحيل أنني كنت سأسمح لكِ بالذهاب إلى أبعد مني، بإظهاري بمظهر المحتال أو الفاشل الذي كنت عليه. لكنْ من المحتمل، فقط ربما، جزء من حنيني الحقيقي قد انتقل إليكِ، هل تعلمين أنني حلمت بدراسة التوراة؟ كان طموحي الأعظم أن أهب كل حياتي لذلك النص، أن أضحّي حتى بحياتي من أجله.

لم يكن لديَّ شوق إلى أطفال أو زوجة، لهذا لم أتزوج حتى بلغت الخمسين. صمدت قدر ما استطعت على أمل أن شيئًا من التدخل الإعجازي سوف يغير مساري، يمنحني حلم الحياة التي دُفنَتْ تحت هذه الحياة. كان لديَّ اهتمام

قليل للغاية بالناس. لقد أزعجوني وخيبوا رجائي، في حين كانت الكتب والأفكار بمثابة الطعام والإلهام. كنت في صميم قلبي متقوقعًا وباحثًا أجبر على العيش في أسرة من الخمسينيات مع زوجة من الغرب الأوسط، وثلاثة أطفال، وسيارة كاديلاك ذات لون أخضر زيتوني، وشركة حلويات مثلجة لإدارتها. يا للسخافة!

لذا، أشكركِ. لقد قاطع نداؤك وحضورك الطواف، وللمرة الأولى منذ واحد وثلاثين عامًا، توقف الألم والعذاب. لذلك، حتى لو كان الأمر لحظيًا فحسب، أنا ممتن كل الامتنان. يا له من أمر غريب. لم أكن ممتنًا قطّ. لا أذكر أنني قلت هذه الكلمة قطّ. لماذا سأكون ممتنًا حين وُهِب كل العالم لي عن حق؟ على العكس، ينبغي على العالم أن يكون ممتنًا لوجودي.

إنه استحقاقي عن جدارة، حق الملوك الإلهي، وهبته لي أمي، التي كانت بكل المقاييس سلطة حاضرة وجبارة ويمكن الاعتماد عليها بالقدر نفسه مثل إلهِ. كانت شديدة الجمال وشديدة الصرامة.

كنت أصغر الأطفال، وُلدت بعد الآخرين بكثير، من الواضح أنه أمر لم يُخطط له، لكنه أمر مميز حتمًا. كنت الحادثة التي أصبحت معجزة. الطفل الذهبي. الولد الذي سوف يحقق الوعد بأعلى طموحات أمي ويخفف عن أبي اكتئابه المزمن

وخيبة أمله. منذ الوقت الذي أصبحت فيه واعيًا، جُبلت على الاعتقاد بأنني أفضل، أذكى، أعز، أكثر استحقاقًا من أي شخص حولي. ما لم أعرفه هو لماذا. وما زلت لا أعرف.

ما عرفته بالغريزة أن حاجة أمي الملحة إلى جعل هذا حقيقيًا كانت لها علاقة بها بقدر ما كانت لها علاقة بي. إنكار الأمر أو معارضته كان سيجعل وجودها المتجمع الهش موضع شك وسيلقي بأمي في غياهب اليأس.

كنت خلاصها. بشّر وصولي بزمن الحظ الصاعد. على نحوٍ ما، سوف يبعث مجرد وجودي زواجها البائس ويعوضها عن معاناتها. كنت نورًا. كنت حبيبًا. كنت ابنًا مخلّصًا. ثمة نوع من التسلسل الهرمي المستتر في العشق. الشخص المعبود أسمى منك، أهم منك. وهكذا كنت وحيدًا. وحيدًا بألم مُمض. وحدة الشخص المعشوق.

أنتَ منفصل منذ البداية على اعتبار أنك مميز. أنتَ هناك لتلبية احتياج الشخص الذي يعشقك، الشخص الذي جعل منك شيئًا معشوقًا. وكنت شيئًا بالفعل. بدا أن عشق أمي لي باعد بينها وبين موضوع عشقها، كما لو أن لمسي سيحطُّ من قدري. كما لو أن معاملتي كإنسان ستجعل مني إنسانًا. لا أتذكر ضمها أو احتضانها لي قطُّ. لا أتذكر لعبها معي، مطاردتها لي، ركضها على العشب الأخضر معي. أتذكر توجيهها لي، تصويبها لي، إدارتها شؤوني، تعليمها لي،

تشكيلها وبناءها لي. توقفتُ عن أن أكون موضوع حياتي، ونادرًا ما سُمح لي بالشعور بالحزن أو البكاء أو إساءة التصرف.

كان أبي، «هايمان»، نمساويًا، وأمي، «سارة»، ألمانية. رُبِّيَ كلاهما بأشد الانضباط. كانا مناصرين لممارسات طبيب ألماني شهير وذي شعبية كبيرة، دكتور «دانييل جوتلوب موريتز شريبر». اعتقد دكتور «شريبر» اعتقادًا جازمًا أن الأطفال الرضع يجب أن يُعلموا الطاعة منذ البداية ويجب أن يمتنعوا عن البكاء. كانت وسيلة السيطرة على الطفل الرضيع، كما أرشد، هي إخافته، وبعد ذلك ستصبح سيد طفلك إلى الأبد. وحثَّ الآباء بشدة على الامتناع عن المظاهر المادية للمودة مثل العناق، أو الاحتضان، أو التقبيل.

كانت النظرية تقول بأنه عن طريق حجب المودة وتوقيع الذعر والإذلال، سيطيع الأطفال رموز السلطة ويُمنعون من التصرف وفق إرادتهم. كانت هناك قواعد صارمة وتفصيلية. سيتبع الطفل هذه القواعد وينمو باستقامة إلى أعلى، مثل النبتة الهائمة المثبتة إلى تعريشة، متسلقًا إلى قمة الإنجاز الاجتماعي والاقتصادي وإلى قمة السلطة.

لم تتسامح أمي ولا أبي مع أي انحرافات عن خططهما من أجلي. بما أن الكثير من آمالهما تعلقت بي، كانت

شدتهما معي أقوى من شدتهما مع أطفالهما الآخرين. كنت مشروعهما. كان مُقدرًا لي أن أكون مسبوكًا ومثاليًا. رُصِدت كل حركاتي. ربما تقولين إن أمي كانت كتومة أو باردة، لكن الإعجاب المفرط قربان قوي، محرض للشهوة. إنه يملأك بنسخة محسنة بوحشية من نفسك، يشحنك بثقة بالغة التشوه والتضخم، بعدوانية متصاعدة لا تهدأ أبدًا.

وبالداخل، وخلال كل هذا، شعرت بأنني عادي، غير ملهِم، وفارغ. لكن في حين كانت أمي تمجدني، رآني أبي كسولًا، مدللًا، مفتقرًا للحافز، مكلفًا، مفتقرًا للتركيز، فاشلًا من نوعٍ ما. شعرت بقدر أكبر من التوافق مع النسخة التي صنعها مني. سيفسر هذا الأمر غضبي الذي لا ينتهي. إن الانقسام بين النسخة التي صنعتها لي أمي وبين من اعتقدت أنه أنا، في الحقيقة أربكني وأصابني بالإحباط. من جهة، أشعرني العشق بالإطراء وإغواء الأنا إلى حدٍّ كبير، لكن من جهة أخرى، لم يكن لدى أمي أي اهتمام أو قدرة على رؤيتي كما أنا، مما يعني أنها لم تكن توليني انتباهًا، لم تكن حقًّا تستمع إليّ أو تنظر إليّ على الإطلاق. احتقرت أي مؤشرات على الضعف أو الشك في النفس. لم يكن لديها وقت أو صبر لوسائلي الطفولية.

ثم كانت هناك أخواتي، «آنّا»، و«بياتريس»، و«روز». كنَّ في الخامسة عشرة، والرابعة عشرة، والثالثة عشرة من

أعمارهن حين وُلدت. وهكذا كنت لُعبتهن المحبوبة. كنت جائزتهن.

لم أستطِع التخلص من الشعور الدائم بأنني مزيف وأن أمري سيُكتشف قريبًا. لم أستطِع فحسب أن أكون ولدًا صغيرًا عاديًا بغرائز جامحة وعابثة، بأحلام يقظة ومتعة مؤذية. عشت داخل ضغط وتظاهر مستحيلين كي أرقى إلى هذا الشخص ذي الصفات الخارقة، في حين كنت أتعذب بالالتباس والارتباك والاحتياجات الإنسانية.

أبعدني هوسي بالعظَمة - الناشئ بالفعل - عن الأطفال الآخرين. رأوا أنني مغرور ومتغطرس. لم أكن شديد التنمر بقدر ما كنت متكبرًا لا أُطاق. بشكل أساسي، لم يكن هناك أحد جيد بما يكفي ليكون صديقي. أكد والداي ذلك في كل مرة أحضرت فيها أحدًا إلى المنزل لألعب معه. كانا شديدي الانتقاد والازدراء. كان هذا محرجًا للغاية، لذا توقفت في النهاية عن إحضار أطفال آخرين إلى المنزل.

أصبحت معزولًا تدريجيًا. لم يكن لديّ أحد لأتكلم معه، لا أحد لأتشارك شكوكي معه، لا أحد لألعب معه، ولا صلة حقيقية بأي أحد خارج هذا البناء الأسطوري لعائلتي. خلق هذا رؤية شديدة التشوه لنفسي وللعالم. كان التواصل الحقيقي الوحيد الذي أجريته مع أخي الأكبر، «ميلتون»، الذي كان يكبرني بأحد عشر عامًا. تشاركت معه غرفة لفترة

من الوقت. كان زميلًا بائسًا بشدة وبدا أنه يوجه إحباطه وغيرته تجاه أخيه الذي نُصِّب فارسًا. أضمر لي احتقارًا كبيرًا وبدا أنه يستمتع بالملذات السادية، ويبتكر باستمرار وسائل غريبة للتعذيب والترويع، مثل إيقاظي بوضع نقط من الكحول في عينيّ، وإخفاء نمل أحمر في ملابسي الداخلية، وإقناعي بأن ثمة خطأ فادحًا في شكل أعضائي التناسلية وحجمها. كان يحبسني في الخزانة لساعات، يقيدني في أعمدة السرير حتى يتقرح معصماي. عشت في خوف عظيم من أنه سيؤذيني بشدة يومًا ما أو ربما حتى يقتلني. كان تعذيبه يُجرى سرًّا. لم يكن هناك أحد ألجأ إليه، لأن الإبلاغ عنه سيجعلني أبدو ضعيفًا وعاجزًا عن الدفاع عن نفسي. عرف هذا، بالطبع، ومن دون رادع، تطور انحرافه بأشكال جديدة وأشد ترويعًا. عانيت بصمت، أكسو نفسي بالفولاذ وأغلق عليها بالأختام، عالِمًا أنه لا مجال لأي تعبير عن الضعف أو الخوف. تعلمت أن أنفصل عن الخزي والرعب ببناء شخصية بديلة. اكتسبت القدرة على عدم الشعور بأي شيء. تعلمت كيف أختفي.

أتصور أنني في هذه المرحلة أغلقت صمامات التعاطف، لأن الشعور بألم أي شخص كان سوف يعني بكل تأكيد الشعور بألمي الخاص. خُفف السخط والرعب اللذان عانيتهما بصورة يومية من خلال حياة مهووسة ممتلئة برؤى الانتقام والتدمير. تشكلت شخصيتي على أرض

المعركة المشحونة تلك. أصبحت منيعًا في أعماقي، وانتهت هذه الأوهام التي لُعبت بلا نهاية إلى تشكيل قدر كبير من أفعالي اللاحقة. لن يستخف بي أحد، أو يخزيني، أو يؤذيني مرة أخرى أبدًا. ليس من دون أشد العواقب. تعمقت عزلتي أثناء نموي في أعوام مراهقتي، وجعلني هذا، مع انقضاض البلوغ، قلقًا ومضطربًا ومهتاجًا إلى حدٍّ غير عادي. لم يكن هناك مكان يمكنني فيه الاستقرار أو الاسترخاء داخل نفسي أو خارجها.

استحوذت عليَّ طاقة شيطانية شعرت أنها ستقودني بالتأكيد إلى جريمة عنيفة أو جنون أو كارثة. ومن المحتمل أنني أردت هذا سرًّا، أزمة من نوع ما ستحطم هذه الصورة التي لا تُطاق وتطمسها نهائيًا، تلك الفكرة السخيفة المتعجرفة عن كمالي الأسمى. حدث من خلال مصادفة عارضة في عيد ميلادي السابع عشر، أن عرض أحد الأعمام الذي يعمل في الأعمال الاستعراضية أن يأخذني لمشاهدة فيلم سينمائي للمرة الأولى. وهناك فُتح الباب ووجدت سبيل الخلاص من بؤسي. «جون باريمور»، «إيرول فلين»، «جاري كوبر»، «رودلف فالنتينو». وُسماء وموهوبون بشكل مذهل، لكن قبل كل شيء، كانوا ساحرين. ساحرين.

هناك على تلك الشاشة العملاقة تعرفت على مفهوم السحر. كان هؤلاء الرجال قادرين بهباتهم الطبيعية على

الإرضاء والإغواء. كانوا قادرين على إبقاء جمهورهم في حالة انتباه منتشٍ وملئهم بأقصى بهجة. كانت سيطرتهم من دون عناء. كان الأمر كما لو أنهم نوَّموا جمهورهم مغناطيسيًا، ببساطة، بالطبيعة المتأصلة في كينونتهم. ولم يكن الأمر هيئاتهم المذهلة وحسب. كنتُ شابًا شديد الوسامة ولم يحقق لي هذا أي نجاح. لا، كان هؤلاء الرجال على الشاشة قادرين، على نحوٍ ما، على بعث الطاقة في هيئاتهم واستخدامها بحضور شخصي طاغٍ مستوحى إلهيًا. بدا الأمر كما لو كان جمالهم يتسم بالذكاء، كما لو أنه ارتقى بطاقة مُسكِرة غير ملموسة، وحيوية مبهمة استدرجتك وأبقتك مشتاقًا، أبقتك مجنونًا، أبقتك مدمنًا.

ذهبت إلى السينما في كل فرصة. درست هؤلاء الرجال. استوعبت كل حركة من حركاتهم، ابتساماتهم، ملابسهم، ثقتهم، طريقتهم في دخول غرفة، طريقتهم في أسر النساء. بدأت أتحرك كما يتحركون، وأتخذ وضعيات كالتي يتخذون. أتقنت حركة تمرير يدي خلال شعري المصفَّف بأناقة عفوية، والنظرة المقتحمة، ولكن الغامضة، عبر الغرفة. فجأة أصبحت لديّ صورة خاصة بي، ليست خاصة بأمي، فكرة عمَّن أردت أن أكون، وكانت الصورة هي كل شيء. أدركت - في تلك السن المبكرة للغاية - أن الثقافة الأمريكية كانت تعتمد على صورة، على خيال. كي تنجح، عليك أن تمنح نفسك بالكامل لهذا الاختلاق.

كان السحر وسيلة تحصيني. خدمَ غرضًا مزدوجًا. استدرج الناس إليّ وأبقاهم متحمسين ومسرورين لفترة طويلة بما يكفي للوقوع تحت تأثير فتنتي. ثم بعد ذلك، حتى حين شعر الناس أنني حقَّرتهم أو آذيتهم أو أخفتهم، أربكهم السحر، لكنْ مثل سلوك الذبابة مع العسل، يتشبثون بي على الرغم من ألمهم. تحوَّل وضعي بين أقراني، بين ليلة وضحاها، من مغمور إلى غامض، من مكروه إلى مقلَّد. لست متأكدًا ما إذا كان أي أحد، في ذلك الوقت أو في أي وقت، عرفني أو أعجب بي حقًّا (وبصراحة تامة، ما الذي كان هناك كي يعجب أحدًا؟)، لكنهم تبعوني، كانوا يهابونني، أرادوا أن يقتربوا مني وأن يكون لديهم أيًّا كان ما لديَّ.

بالطبع، كان ذلك وهمًا برَّاقًا، مثل كائن «كايميرا»، وهمًا أو حلمًا، لكن من كان يهتم؟ نزع السحر الجزء القبيح من عظَمتي. جعل الغطرسة حلوة. لم أكن أقل تكبرًا، لكنْ أصبح الناس يُعجبون بي من أجل ذلك التكبر، كما لو أنه بدا مبرَّرًا. في تلك الأعوام التي سبقت لقاء أمك، أتقنت أدائي، وفي الحقيقة بدا أن حياتي بأكملها كانت مشهدًا عظيمًا. على نحوٍ ما، بدا أن هذا التصور الجديد اللامع لنفسي يدرأ انتقادات أبي وازدراءه القاسي. كان منبهرًا بالتزامي بهذا السلوك واللباس والأسلوب الجديد، وفجأة صار لديه إيمان أنني سأرتقي بالفعل لأصبح الفتى الذهبي الذي حلم هو وأمي به، ممَّا سيجلب للأسرة الثروة والمكانة. حتى أمي وأخواتي

أصبحن إلى حدٍّ كبير أشدَّ ولعًا وتفانيًا. كنت الملك الأمريكي الجديد، السبيل إلى مستقبل باهر ولامع للجميع. حتى «ميلتون»، أخي الشرير، اختل توازنه وبدا أن التأثير بأكمله قد ألهمه إلى حدٍّ ما. بدأ تدريجيًا في محاكاة طريقتي في ارتداء الملابس وكان يرافقني أحيانًا إلى السينما.

كان الشاب الغاضب المعذَّب بداخلي متنكرًا الآن بشكل محكم، مكتسيًا ببدلات أنيقة مصنوعة يدويًا. مرتديًا حُلة من الثقة والأناقة، وبدا ـ للحظة على الأقل ـ أنه يُحول أعداءه إلى معجبين من خلال الأسلوب والسحر. لن يفاجئكِ أن هذا كان أشدَّ علاج تخليقي لما يمكن أن أعرفه الآن فقط على أنه سقم الروح. لقد ألقيت في هذا العالم وأنا على النقيض تمامًا للرجل الفلسفي المفكر العميق الذي حلمت بأن أتحول إليه ذات مرة. بدلًا من ذلك كنت أتحول إلى كل شيء احتقرته سرًّا.

لأنني أعرف الآن، بعد أعوام من الهوس المتواصل بالذات في مملكة الموت، أنه ما من ألم حقيقي يمكننا أبدًا دفنه أو تجنبه بصدق ضمن حدود ذواتنا. الرجل المعذَّب الذي حاولت تركه ورائي سوف يظهر على السطح في النهاية. مع كل أعوام إجباره على البقاء تحت الأرض، وكل الحزن والألم اللذين تجاهلتهما ولم أكترث لهما، تحوَّل كورم خبيث إلى كيان وعاد كشيطان أشد رعبًا. طالب بحياتي حينها،

وللأسف الشديد، طوال السنوات الإحدى والثلاثين الماضية طالب بموتي في «الليمبو». أدرك أنني أتحدث عنه بضمير الغائب. لا أحاول بأي حال من الأحوال التهرب من مسؤولية أفعاله. كان الأمر أقرب إلى أن يكون مؤشرًا على عمق الانفصال، الذي أصبحت عليه، عن الشخص الذي سأسميه «رجل الظل».

بالطريقة نفسها التي لم يرَ بها والداي الصبي الصغير الذي كنته حقًّا أو يعيراه انتباههما، بالطريقة نفسها التي جعلاني بها مثاليًا وحوّلاني إلى مِلك، تعلمت بدوري فعل الشيء نفسه مع نفسي.

أصبحت إلهًا في ذهني. أصبحت كاملًا وكلي القدرة. لم يكن لـ«رجل الظل» مكان في هذه القصة. لذلك عاقبته بالطريقة نفسها التي عوقبتُ بها. إذا كان يتألم، أصبحت نافد الصبر معه وأخبرته أن ينتزع نفسه من الألم. إذا كان خائفًا أو متشككًا، تنمرت عليه بحُكم لا يرحم. إذا طفت الحواف المهترئة لقيمته الذاتية المتدنية على السطح، حقنته بجرعات من رؤى مبهرة عن براعتي وإنجازاتي. إذا حاول أن يُذكرني بمدى بُعدي عن أشواقي الروحية، أشعرته بالخزي لأحمله على الإذعان بالحط من قدر أحلامه غير العملية وغير المنطقية وتمجيد حظي الصاعد. ثملت كي أصرفه بعيدًا. حققت الإنجازات كي أصرفه بعيدًا.

لكن طوال الوقت، تآمر «رجل الظل»، واغتاظ، وهاج. نما إحساسه بالخيانة ومرارته وسخطه مثل حمم بركانية ترغي وتزبد تحت سطح جلدي. لن يظهر «رجل الظل» إلا بعد ذلك بكثير. أكد الاحتكاك المتواصل ـ الناجم عن ازدرائي المتزايد لنفسي مقترنًا بغروري وعجزي التام وعدم رغبتي في تغيير طريقي ـ على مستقبل سأصبح فيه قاسيًا وعنيفًا.

لكن «رجل الظل» لن يظهر إلا بعد ذلك بكثير. في تلك السنوات التالية بنيث حياة على السحر، والمظهر الجميل، والغطرسة. تحركت في حشود متألقة ومسايرة للموضة. عملت عارضًا لفترة من الوقت، ولم أرَ قَطُّ في الأماكن العامة من دون ممثلة مذهلة أو شخصية اجتماعية أنيقة تتأبط ذراعي. دُعيت إلى أشد الأندية تميزًا. صعدت

من دون مجهود، على ما يبدو، إلى قمة المجتمع وعالم الأعمال. المفارقة بالطبع هي أنني احتقرت هؤلاء المدعين والمنافقين الذين رحبوا بي ولم أكترث للمال. وجدته كريهًا وأقل من قذري، مجرد وسيلة للحفاظ على واجهتي الزائفة. لكن ربما كان ازدرائي الفعلي لكل ذلك هو ما جلب لي الحظ.

لاحظت أن الناس غالبًا ما يبدون مستميتين من أجل الشخص الذي لا يكترث لهم. إنهم ينجذبون تجاه الأكثر انتقادًا وإصدارًا للأحكام لأن هذا الشخص يؤكد أعمق شكوكهم في كونهم زائفين لا قيمة لهم. استغللت هذا

الضعف لرفع مكانتي والحفاظ عليها. كان الناس يخشونني، كما لو أن بإمكانهم الإحساس بازدرائي الكامن لشواغلهم المثيرة للشفقة. لكن سحري ومظهري شتتهم وجذبهم إليَّ. كانت حياتي لعبة لا بد من إتقانها، شخصية وصورة لا بد من تصميمها وجعلها مثالية. كنت ما أصبح يُعرف بالرجل الأمريكي العصري.

هنا حيث تأتي أمك. كانت أيامي كأعزب عابث بدأت في التدهور، تهاوى الوغد المحبوب بسرعة إلى نذل غير مكترث. اقتربت من الخمسين ولم أحظَ قَطُّ بعلاقة دامت أكثر من أشهر قليلة. أخبرت نفسي وأقلقت الآخرين، خاصة أخواتي الأكبر سنًّا، أنني كنت في انتظار «المرأة المميَّزة»، لكنني في الحقيقة، خشيت كل شيء يتعلق بفكرة الزواج والعائلة. كانت فكرة أن تُحبس في منزل، مع امرأة مملة وأطفال مقرفين في روتين كئيب، فكرة تصيب بالشلل.

في ذلك الوقت تقريبًا قابلت أمك. أتمنى لو أمكنني إخبارك أننا وقعنا في الحب بجنون، لكنْ ليس هذا ما حدث. (على الرغم من أنكِ يجب أن تعلمي أنني انتهيت إلى أن أحب أمك كثيرًا بطريقتي).

كان وضعنا مختلفًا. كانت أمك تصغرني بعشرين عامًا، وصنع جمالها وشبابها تباينًا مذهلًا ومكملًا لهذا الرجل الأشيب الأنيق الأكبر سنًّا. كانت فائقة الجمال، شقراء،

ورشيقة، وشابة، ورائعة، تخطف الأنظار. كان لديها وقار الجمال وسلبية الشخص الذي تتعلق به الأبصار. لكن ما جذبنا لبعضنا البعض أننا تعرفنا على أنفسنا، أحدنا في الآخر.

كنا فنانَين في الهروب، كل منا يفر من سجن ماضينا الممل، واختناق أسرتينا، والجوانب المختلفة لشخصياتنا غير السوية. كنا منتجات مصنوعة ذاتيًا. أمك، في محاولة لمحو جميع علامات تنشئة ريفية فقيرة من الغرب الأوسط، صبغت شعرها باللون الأشقر، وغيرت اسمها، وصممت أسلوبًا وشخصية من دراسة نجمات الغناء في الأفلام. كنا مؤديَين وحيدَين وحّدنا قوتنا في أغنية ثنائية ممتعة للجمهور، «آرثر» و«كريس». فعلنا كل شيء ما عدا الرقص. لذا عندما أشار الناس إلينا باستمرار باعتبارنا «كاري جرانت» و«دوروس داي» عرفنا أننا قد وصلنا. كنا ابتكارًا نقيًا، مزيجًا من الحلوى. كنا موجودَين فقط في الأداء التمثيلي، وفي تلك السنوات الأولى، كان تمثيلنا ناجحًا.

تناولنا العشاء وسافرنا ضمن أشهر الدوائر الاجتماعية المُحتفى بها بمدينة نيويورك، كانت حياتنا الاجتماعية ممتلئة بالبهجة بفعل حفلات «الدراي مارتيني» الممتاز. بحلول ذلك الوقت كنت قد ارتقيت في صفوف شركة الآيس كريم إلى مركز مهم. ارتدينا ملابسنا الملائمة

لأدوارنا، حفظنا جُملنا وردودنا اللماحة. لم يكن لدينا أدنى فكرة عن هُويتنا، وبالتأكيد لم نعرف شيئًا، أحدنا عن الآخر. لم نتبادل أحاديث عميقة حين كنا بمفردنا. كان التزامنا نحو ارتقاء اجتماعي مخفيًا تحت قشرة خارجية مصممة بإتقان وغير قابلة للاختراق. كنا لغزَين منسقَين، ساحرَين، مثيرَين للعواطف، ومن دون مدخل.

في سنواتنا الأولى، سار الأمر على ما يرام بالنسبة إلى كلينا. كانت لدينا ثروة وسحر ومظهر ومكانة وخمر. كانت ممارستنا للجنس روتينية، أداء أيضًا. مع أن ذلك ربما يكون أكثر مما تودِّين معرفته. كان زواجنا ترتيبًا منصفًا لإعلاء مكانتنا ونفوذنا والحفاظ عليهما. شركة أعمال صغيرة. كنت رئيس مجلس الإدارة وكانت سكرتيرتي. على أي حال، تغلَّب عليَّ هوسي بالعظَمة. كيف أمكنني، بشخصيتي المتفوقة وفطنتي، ألا أستمر في هذا الإرث؟ كيف أمكنني، بمثل هذا السحر والمظهر والذكاء، ألا أتناسل؟ لكن لو أنني صادق، لا أعتقد أن أمك وأنا فكرنا في الأطفال على أنهم ليسوا أكثر من مجرد ركائز لأسلوب حياتنا المتطور.

منذ سِن مبكرة، كان لديَّ دائمًا شعور مريع بشأن إنجاب الأطفال. إحساس مخيف من نوع ما أنهم سوف يقذفون بي في كارثة غير متوقَّعة. كشخص بالغ، كانت لديَّ حساسية تجاههم وهم لديهم حساسية تجاهي. كانت الأطفال بالنسبة

إليّ غرباء بشكل مقلق ومألوفين بشكل مرعب. ظاهريًا، أزعجوني وأغاظوني، لكن الصعوبة كانت أعمق بكثير. كما هي الحال، كان إنجاب الأطفال هو العامل المحفز لعودة «رجل الظل». وأعرف الآن أن غريزتي في عدم إنجاب ذرية كانت صحيحة.

لم يُسمح لي قَطُّ أن أكون طفلًا. كان الأطفال دليلًا لا يمكن إنكاره على ما كنت عليه فيما مضى، ضعيفًا، محتاجًا، غير قابل للسيطرة، فوضويًا، حيًا. استحضر الأطفال في داخلي غيابًا لا يُحتمل، توقًا لا يُحتمل وشعورًا بأعمق خيانة. استحضروا سخطًا قاتلًا. احتقرت احتياجهم اللانهائي لأنهم جرَّفوا احتياجي من أعماق نفسي.

لكن كان مولدك، «إيفي»، هو ما لفني داخل حيرة وإرباك عميقَين. لم يُعدَّني شيء لحنانك. لم يُعدَّني شيء للحنان الذي ستثيرينه بداخلي. في سنواتك الأولى لم أستطِع أن أثق بنفسي معكِ. في كل مرة حملتك بين ذراعيّ، وشعرت بذلك اللحم اللدن لجسدك الدافئ كطفلة رضيعة، كل مرة التفَّت أصابعك الصغيرة بإحكام حول أصابعي كرجل بالغ، اندفع نبض جياش خلال جسدي بأكمله. كانت شعلة هذا التواصل إحساسًا أشد أسرًا من أي شيء شعرت به في حياتي. أشد إثارة من الفوز بمنصب رئيس مجلس الإدارة، أشد شهوانية من الذروة الجنسية، أشد وجدًا من أعمق

صلاة. ملأت هذه الطاقة كل خلية في كياني. استدعتني خارج ذاتي.

لم يتحدث أحد عن مثل هذه المشاعر قَطُّ. لم يكن لديَّ أدنى فكرة أنني سأشعر بهذه الطريقة تجاه ابنتي الرضيعة. لم أعرف الحب. لم أكن محبوبًا قَطُّ. كنت معبودًا. كنت مؤلَّهًا. كنت مخلِّصًا. لم أتذوق الحليب الحلو كالعسل من ثدي أمي، يغذي روحي وخلاياي ويُشبعهما. لم تكن لدى جسدي طريقة لتلقي مثل هذه النشوة الحلوة أو الاحتفاظ بها.

كل مرة كنت سأتجاسر فيها تجاه جسدك الصغير، أجد نفسي مشلولًا، مرعوبًا، ومليئًا بالرهبة. رأت أمك أن الأمر كوميدي ونموذجي بالنسبة إلى رجال جيلي، الذين كانوا يخشون غرابة الأطفال وهشاشتهم. لكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق. كيف بإمكاني أن أخبر أمك أن لمسة بشرتك ألقت بي إلى تشنجات من الهياج والتأجج على عكس أي شيء مررت به معها أو مع أي امرأة؟ أن جوهرك الرقيق قد فتح القفل الفولاذي في قلبي وخاصرتيّ، وأنه قد استحوذت عليّ رغبة استنزفتني وملأت كل أيامي ولياليّ بالنعيم والعذاب؟ كيف أخبرها أنكِ كنت كل ما أشتهي، أنه ما من لمسة أخرى ستضاهي لمستك أبدًا، ما من حلاوة سيكون لها المذاق الحلو نفسه؟ لقد خنتها بالفعل.

كنتِ عنفوان حياتي العائد. كنتِ هبة الشغف المصنوعة من لحمي ونُطفتي. كنتِ النداء، الدعوة، والاستدعاء الجامح للسمو. لم أتمكن ولن أستطيع إخبار أمك بأي شيء من ذلك. وهكذا غُرست بذور السرية، الإظهار المستمر للحياة المزدوجة. حاولت. حاولت أن أبقى بعيدًا. في تلك الأيام الأولى، قبل أن أعبر بحر المحرَّم، صليت لله أن يخلصني من هذا الاستحواذ. كانت صلواتي، بكل صدق، فاترة وغير مخلصة. لقد أُدمجت الرغبة مع القدَر بالفعل.

لقد حُفِّز «رجل الظل» بميلادك، شُحن جوعه الضاري بحنق ألف حصان بَري يستعجل رياح حريته. حُفِّز إحساسه الوحشي بالاستحقاق داخل الجوهر الشهواني لحنانك. كان وجودك إثباتًا لوجود «رجل الظل» بطريقة ما، كان نقاؤك وحيويتك الطعامَ الذي يتوق إليه ليشعر بنقائه وحيويته. وانتظر، بصبر، مثل الأسد في الأجمة استعدادًا للحظة المناسبة للانقضاض على فريسته.

لسنواتك الأولى، حافظت على المسافة بيننا. بالكاد لمستك، على الرغم من أنني غالبًا ما كنت أتسلل إلى غرفتك ليلًا وأقف بجوار مهدك وأنتِ نائمة. كنت أميل عن كثب وأستنشق العبير الحلو لأنفاسك كطفلة رضيعة. كنت أغطيك ببطانيتك البيضاء الصغيرة، وبينما ألفها حول قوامك الدقيق كنت أشعر بهذا الإحساس بالسقوط، السقوط،

والتقلب في كونٍ حليبيٍّ قدّم أمانًا وبهجة لم أعرفهما قَطُّ. هناك في مهدك المستخدَم كمذبح، مقمَّطة في القطن الأبيض، ضعيفة وواثقة تمامًا، كنتِ القربان المتوهج.

ثم بلغتِ الخامسة من عمرك. كان هناك شيء ما بشأن الخامسة. وجهك يتخذ شكل وجهي، عيناك البنيتان أكثر امتلاء بالحيوية والجاذبية، جسدك الطفولي يصبح جسد أنثى فجأة، ذكاؤك يتجلى في حس الدعابة المشاغب. لعبت معي، داعبتني، بدا أنكِ تعرفينني بطريقة ما كما لم يعرفني الآخرون قَطُّ، تبتهجين بطرقي، تجدين الراحة التامة في عناقي، تسعين إليَّ. على عكس أمي، لم يكن لديك أي صورة عمَّا كان من المفترض أن أكون عليه. أحببتني كما كنت. وكنت هدفًا لعشقك النقي التام، المحور الذي يدور عليه كيانك. يا له من مُسكِر قوي! كيف كان لي أن أعرف أن كل بنت شعرت على هذا النحو تجاه أبيها؟ كيف كان لي أن أعرف أن هذا العشق كان مرحلة ضرورية في نمو الطفل ولا ينبغي إفساده؟ بدلًا من ذلك أعاد ذلك العشق تأكيد هوسي بالعظَمة. أو بالأحرى، استخدمته لأفعل ذلك. أزال الشكوك في احتيالي. ملأ خوائي. لقد وُلِدت طفلة أدركت ورعي، عشقتني على النحو الذي عشقتني به أمي وأخواتي، عبدتني كما تحتَّم وكما سيتحتَّم على الآخرين أن يعبدوني.

كنتِ كنزي، خليقتي التي تعكس الآن فضيلتي ومجدي.

وكانت حكمتك تفوق عمرك القصير. بدا أنكِ تستشعرين احتياجاتي وحالاتي المزاجية. إذا كنتُ في حالة كآبة، وهو ما كنت عليه غالبًا، كنت تتسلقين حجري وتربّتين بأصابعك الصغيرة على خدي كما لو أنكِ تلهينني، كما لو أنكِ تدفعينني بلطف للخروج من كآبتي. إذا كنت غاضبًا، لم يجرؤ أحد غيرك على الاقتراب مني. كنت ترسمين لي تعبيرات بوجهك، تؤدين رقصًا بهلوانيًا وتجعلينني أضحك. كنت أطيب فتاة صغيرة. دائمًا تساعدين الآخرين، متعاطفة للغاية مع من حولك. ما من مرة بكى فيها أحد إلا بكيت. كان قلبك قلب ملاك. وكنت مِلكي. فتاة أبيها الصغيرة، فطيرتي الحلوة. هكذا أسميتك. أرى كيف يجعلك هذا تجفلين الآن. لم يحدث ذلك مرة واحدة. فطيرتي الحلوة. فطيرتي الحلوة. قشرة لذيذة المذاق مع فاكهة شهية حلوة دافئة من الداخل.

بذلت قصارى جهدي لاحتواء ولهي وتمويهه، لكن هذا النوع من الشغف من المستحيل حجبه. كانت أمك تمزح باستمرار حول كيف كانت «إيفي» «قرة عين أبيها». وبطريقة ما، أعتقد أنها ارتاحت لهذا النوع من الارتباط وشجعته، بما أنني لم أقترب منكِ في سنواتك الأولى، وكانت قلقة من أنني لن أتواصل معكِ أبدًا. تآمرت كل القوى لتجعلنا أكثر قربًا.

الحنان. يطلق الحنان موجات صوتية حلوة عبر الحدود. يا للمسيح، هذا الحنان الموجع؟ لقد دُحِر هنا في «الليمبو». يُعرِّف اللامكان الفارغ بأفضل صورة بغياب الجمال وطيبة القلب.

كان كلاهما محظورًا على نحو صارم منذ بدايات صباي، فُسّرا خطأً على أنهما هشاشة وانعدام للرجولة. هذه بالتأكيد أكثر الأمور المفقودة بين الأحياء. هل نخشى أي شيء أكثر من الحنان؟ ما من حرب، ما من كراهية، ما من قسوة بإمكانها أن تجعلنا نشعر أننا بلا حول ولا قوة إلى هذه الدرجة. ماذا نفعل معه؟ نفترسه، نتملكه، نسحقه؟ لم يخطر لي قَطُّ أن أكون معه وحسب، أن أكون معكِ، أن أشعر، وأقدِّر، وأتشارك عمق مودتي ببساطة. بدلًا من ذلك، أصبحت هذه المودة المفزعة محنة، لعنة مشتعلة. كنت شديد الخواء وغير مستعد. آه، يا «إيفي»، كنت شديد الولع بكِ.

كيف بدأ الأمر؟ أعلم أن هذا يشكل أهمية كبيرة لكِ. كيف يتخطى المرء حدود ما هو مباح؟ كيف للمرء أن يخترق أحد المحرمات المشفَّرة في جوهر حمضنا النووي؟ الإجابة: ببطء، بالتدريج. أذكِّرك أنني افتخرت بنفسي لكوني رجلًا أخلاقيًا جدًا. كنت حريصًا على قول الحقيقة. لم أكسب مالًا أكثر مما احتجنا إليه. آمنت بالاعتدال فوق كل شيء. دربت

جميع أطفالي على أشد آداب السلوك صرامة حتى تكوني دائمًا كريمة ومحترَمة بالنسبة إلى الآخرين. ثمَّنت نزاهتي.

حتى في مجال الأعمال، كرئيس شركة، مارست الإنصاف في جميع تعاملاتي. احتقرت الجشع والإهدار ولم أتفق قَطُّ مع الأثرياء الجدد الذين كانوا مبتذَلين ومتساهلين في سعيهم للثروة والممتلكات. أنتم أيها الأطفال لديكم كل ما احتجتم إليه. دعامات تقويم لأسنانكم وملابس وأحذية. إجازة سنوية، دروس سباحة وباليه.

آه يا عزيزتي، إلى أين أذهب بهذا؟ أخشى أنني أنزلق إلى الخلف، محاولًا إقناعك بصلاحي، وليس هذا بالتأكيد ما تحتاجين إليه أو تريدينه. إنه فقط لأقول إنه بين الشخص الذي أصبحت عليه معكِ وبين الشخص الذي اعتقدت أنني عليه، كان هناك فرق كبير.

بدأ الأمر ببساطة، ظُمر في المألوف بسهولة. كانت لدينا لعبة. كنت أغمض عينيَّ وأسأل: «أين ذهبت حبيبتي «إيفي»؟ لماذا هربت، أين تختبئ؟».

كنتِ تصرخين بسرور وتصيحين: «أنا هنا يا أبي. أنا هنا». ما زالت عيناي مغلقتين، كنت أقول: «أوه أين، أوه أين ذهبت فطيرتي الحلوة؟ لماذا لم تعد تحبني؟». كنت تجذبين ساق بنطالي، تهزين فخذي: «أنا هنا يا أبي. أنا

هنا». «أوه، أنا حزين للغاية أنها هربت. لماذا ستترك أباها؟» وأنتِ، ستدفعين ذراعيّ وساقيّ صارخة: «افتح عينيك يا أبي. افتح عينيك. أنا هنا». ثم يستقر الذعر: «افتح عينيك يا أبي». كنت تتسلقين في حجري وتبذل أصابعك الصغيرة كل ما في وسعها لتفتح جفنيّ، لكنني كنت أحكم إغلاقهما كما لو كانا ملتصقين بالغراء. كنت تبدئين بالبكاء: «أبي، افتح عينيك. افتح عينيك». وحين أشعر أن الأمر قد استمر طويلًا، كنت أفتح عينيّ بمفاجأة وسرور عظيمين: «أوه، ها هي ذي! ها هي فطيرتي الحلوة. لكنني لست متأكدًا أنها ما زالت تحب أباها». وأنتِ، تمسكين بوجهي، تنظرين في عينيّ، تقبلينني مرارًا وتكرارًا على وجنتَيّ وجبهتي: «أحبك يا أبي. أحبك يا أبي». «لا أعرف يا «إيفي»، لستُ متأكدًا». وأنتِ تقهقهين وتصرخين وتلكمينني قليلًا: «أنت أبي. لي وحدي، يا أبي». «لا أعرف. هل أنتِ متأكدة يا «إيفي»؟». وكنت تلفين جسدك كله حول جسدي وتدلكين وجنتك على وجنتي مثل قطة برية في الطقس الحار. كنت أمسك بكِ حينها وأعانقك بقوة وأرفعك وأدور بكِ. «نعم، أعتقد أنكِ تحبين أباك. تحبينه حقًا. أنتِ فتاة أبيك الصغيرة الغالية». وكنت تضحكين وتصرخين بارتياح وسرور.

لكن بعد ذلك في أحد الأيام، تماديت كثيرًا وانتظرت طويلًا قبل أن أفتح عينيّ (أتساءل الآن إذا كنت أدفعك للانهيار) وأصبحت يائسة:

- أبي، أبي افتح عينيك. أنا هنا.

- لا أستطيع العثور عليكِ يا «إيفي».

كنت تصرخين، تبكين، تسحبين جفنيّ إلى الخلف بأصابع محمومة.

- افتح عينيك يا أبي، افتح عينيك! انظر إليّ، انظر إليّ!

ثم بدأتِ في التوسل والنحيب:

- أبي. افتح عينيك! افتح عينيك!

وأخيرًا فعلت، لكن حينها لم يكن من الممكن مواساتك. لقد انتحبت وانتحبت كما لو كنت تعانين نوعًا من الفقد السحيق والبدائي، كما لو أنكِ تمكنت من الوصول إلى أحزان الكون بعيدة المدى. حاولت كل شيء كي أهدئ من روعك. احتضنتك. قبّلتك. كنت صارمًا معكِ وأمرتك أن تتوقفي. لكنك لم تفعلي، أو ربما لم تستطيعي.

ولا أعلم لماذا حدث الأمر حينذاك. ربما كنت أرتجف باختبار الحد الأقصى لارتباطك بي، لعمق احتياجك لي. لم ينتحب أحد من قبل من أجل جذب انتباهي. ربما كان ضعفك ويأسك المطلقَان هما اللذان منحا له الإذن

أخيرًا بتولي زمام الأمور، لكن «رجل الظل» تقدَّم. وهناك وحينذاك اخترق بوابة الخطيئة. بدأ يداعب جسدك الصغير. في البداية كان الأمر للتهدئة. أو على الأقل هذا ما قاله لنفسه. اليدان ببطء وبهدوء عبر صدرك، عبر البهجة الطفيفة للحلمتين الناشئتين كالبراعم. بدا أن هذا يجعلك ترتاحين وتسترخين بعض الشيء. لكن الأمر كان أكثر من ذلك بالنسبة إليه. أراد هذا. أسفل بطنك اللينة حيث كنت تُدَغدغين. ثم ببطء وبشكل أكثر منهجية إلى الأسفل، إلى أسفل حيث سروالك الداخلي القطني. عرفت أنه كان يجب عليّ التوقف. عرفت أن هذا كان خطأ فظيعًا لكنني تابعت. كنت رجلًا في الثانية والخمسين من عمره مع طفلة في الخامسة من عمرها. احتياجي، رغبتي، أقوى من راحتك وسلامتك العقلية. اليد الآن تلامس لكنها لا تلامس النتوء النامي لموضعك الحلو. بالتدريج في البداية. تختبر ربما. استغللت انفتاحك. أسأت استخدام ثقتك. قلت لنفسي إنكِ تريدين هذا. توقف بكاؤك. كانت لمستي دواءً سامًّا.

ضممتك في حضني وتلاشت كل الحدود. وراء المحرم، وراء القانون، كانت هناك مجرة من النعيم، صعودًا وهبوطًا، صعودًا وهبوطًا. بدا أن السماء بأكملها تهتف. استمر. لا تستمر. استمر. هذا مخالف. هذا حقك. هذه جريمة. هذا كثير للغاية. أوه، «إيفي»، لا بد أن أتوقف.

لقد وصلت إلى هنا بسرعة كبيرة. لقد خطر الأمر لي الآن كما خطر حينذاك. أنا متأكد أنه يبدو بعثًا أكثر من كونه حسابًا.

ذلك اليوم، تخطى «رجل الظل» الحدود وأنهى حياتي كما عرفتها. وحياتك. سافرت في عالم لا يرشدني فيه شيء عقلاني أو مألوف. فصلت عن السفينة، المرسى الذي عرَّفني ككائن أخلاقي ونُبِذت إلى الأبد على بحر أهوج لا يرحم. بوسعي أن أرى هذا الآن، لكنْ في ذلك الوقت كانت القوة التي استحوذت عليّ قاهرة وشديدة الكمال إلى درجة أنها طغت على التمييز العقلاني.

كنتِ ملاكًا هبط لإنقاذ روحي وتقتْ إلى الخلاص. كنتِ الهبة التي ستهديني إلى قلبي حين اشتهيتُ أن أكون إنسانًا قبل كل شيء. في ذهني المشوه، تزوجنا في ذلك الحين، ليس كزوج وزوجة لكنْ على نحو أعمق، عهد قطعه جسدانا مع الله ومع بعضنا البعض. كنت ملكي، يا «إيفي». ملكي وحدي. المرأة المميَّزة. المرأة التي، من خلال جمالها وبراءتها وذكائها، أخرجتني من ذاتي، وأخذتني إلى أعالٍ لم أعرفها قَطُّ، وكسرت القيود وجعلتني مجرمًا بإرادتي إلى الأبد.

كما رأى «رجل الظل» الأمر، الطبيعة المختلَسة لعلاقتنا عمَّقت صلتنا، وقيمتها النفيسة، وحميميتها. إن السرية

نوع من مادة مخدِّرة، مشبَّعة بالشبق، والخطر، والمجازفة المشتركة. كانت علاقتنا سرَّنا. لا أحد يمكنه لمسها أو معرفتها. كانت رابطتنا ووعدنا. استفاد «رجل الظل» بشكل كامل. كان سرنا صندوقًا مُذهَّبًا استطاع «رجل الظل» الاحتفاظ بكِ داخله. لماذا ستبوحين؟ لماذا ستخسرين الجنة؟

عرفتِ أنكِ فزتِ بقلبي في الخامسة من عمرك، أنني كنت ملكك، أنه لم يكن هناك أحد سواك. أمر مُسكِر بالنسبة إلى أي طفل، يمنحك إحساسًا استثنائيًا، وكما أتخيل، مشوِّهًا، بالقوة. كان عليكِ فقط أن تطرفي بعينيك الجميلتين أو أن تسرقيني وتداعبيني برقة بتنورتك الداخلية المنتفخة المتلألئة وكنت هالكًا ميؤوسًا منه. لقد سخرت مني ولاطفتني، وبعد ذلك، حين علقتُ، كنتِ ستسحبين اهتمامك، تلقين بي في جنون السقوط الحر. لن أكون صادقًا معكِ إذا لم أخبرك أنني استمتعت بذلك. حتى تلك اللحظة لم يكن لدى أحد قَطُّ هذا النوع من السطوة عليَّ. لم يسبق لأحد قَطُّ أن اشتبك معي، لعب معي، وثقب القشرة الخارجية.

- افعلي ذلك معي، «إيفي»، افعلي ذلك معي كما تشائين.

وهكذا بدأت أيام النشوة.

كنت أجد نفسي في غرفتك في ساعة ما وقت الغسق. شعرت أنني على قيد الحياة فقط بين النهار والظلام في ذلك العالم الغسقي حيث يتعذر حل طلاسم الحلم والذاكرة. هكذا تحكمت بكِ. تلك الساعات المعتمة حين كان الآخرون في المنزل يغطون في النوم وكنتِ في سبات، منفصلة عن جسدك. كنت أجد نفسي جالسًا على فراشك، حملني «رجل الظل» إلى هناك بطريقة ما. كنت تتظاهرين بالنوم. كما لو أن ما كان يحدث لم يكن يحدث. كنت تريدين بيأس أن يتلاشى وأن أبتعد. لم أبتعد. لم أتحدث قَطُّ، لم أصدر صوتًا قَطُّ. كان الصمت قوتي. كانت الكلمات ستُبطل السحر، ستجعله حقيقيًا وقبيحًا وعلى ما هو عليه.

يداي، ليستا يدين، تمتدان إلى أعلى، تحت ثوب نومك الناعم وبشرتك اللينة. أنتِ، «إيفي»، أنتِ، غالبًا ما كانت ساقاك ممدودتين تحت أغطية الفراش متصلبتَين. سحبت سروالك الداخلي برفق. كنت سأرفعه إلى وجهي، أستروح حياتك، أستروح نداك. وأنتِ، ما زالت عيناك مغلقتين، تُصلين كي يتوقف الأمر. كنت أفصل ساقيك عن بعضهما، من أجل الفحص، بالنسبة إليَّ، طبيبك. طبيبك القذر. في البداية أستكشف بأصابعي فقط لمعرفة ما هو مطلوب. أتحقق بلطف. أتلمس هنا وأتلمس هناك، أتلمس بخفة، أتلمس أكثر، لأعثر على المكان الذي احتاج إلى اهتمام، الذي احتاج إلى توطيد.

قلت لنفسي إن هذا أثارك على الرغم من أنكِ كنت بالكاد تتنفسين. كنت طبيبك وكنت أشفيك. بالطبع أردتِني. *لامِسه هنا. لامِسه الآن، يا أبي. اجعله أفضل، هنا.* قلت لنفسي إنني أفعل هذا من أجلك أنتِ، أنتِ، من أجل «إيفي» الصغيرة، ببطء وبخفة شديدَين في البداية، تقريبًا ليس كل شيء، فقط أمسُّ هناك بخفة، سألامسه بعد ذلك وأضغط وأدلك وأتحرك، أتحرك، ثم أنحرف قليلًا، والحاجة إلى أن أضغط وأضغط وسأدلكك ثم أدلكك ذهابًا وإيابًا وذهابًا وإيابًا، أدلك وأدلك، موضعك، موضعنا، دلّك، أيها الطبيب، ابقَ معه، ابقَ معه، لا تتوقف، قم بعملك، ثبّتني هناك، ابعثه إلى الحياة. الحياة، الحياة. آه يا إلهي، «إيفي»، لقد كنتِ الحياة. ينفجر هناك، زلزال صغير في يدي، يرتجف، يمزق المشهد. آه يا للمسيح. أشعر بالغثيان وأنا ميت. كيف لشخص ميت أن يتقيأ من دون جسد؟

أشعر باشمئزازك وتقززك. أرى كيف غمر هذا التحفيز المفرط جسدك ذا السنوات الخمس بالاهتياج والرهبة والحزن الذي لا يمكن تفسيره. أصبحت اللذة سحقًا للذات، أصبح الجنس حدادًا. أنا فعلت هذا.

«إيفي»، مِمَّ أتكون الآن؟ ما الذي يغلفني فيما وراء المادة؟ ليس الجلد بقدر خيوط العار، ليس اللحم بقدر سوء قصد غليظ الألياف. سيستغرق الأمر وقتًا لأكشف القناع عن

نفسي. كل طبقة تفسح المجال لأخرى وكل طبقة تبدو حينذاك أكثر صدقًا. آمل أنك ستكونين صبورة معي بينما أنبش هذه الحقائق المتحللة. أنا مدرك بشدة للألم الذي يسببه لكِ ذلك. لقد طلبتِ تشريح جثة الوعي والتشريح يجري ببطء، يزيل تخشب الموتى النفسي هذا تدريجيًا.

دعيني أواصل هذا الحساب. سيكون هناك وقت للعودة، وقت لتحليل الأمر من خلال موشور آخر. في الوقت الحالي، سأواصل مشاركته بالطريقة التي اختبرته بها في ذلك الوقت، موجّهًا من دون وعي ذاتي، بأنانية ورغبة استنزفتني تمامًا. وعلى الرغم من أنني أدرك أن وصف الأمر لك على هذا النحو قد يبدو أنه يجعلني أفلت من العقاب أو يجعلك تشعرين بالغثيان، فهكذا عشته حينذاك. لم أكن منفصلًا وواعيًا بـ«رجل الظل» كما أنا الآن. كنت بداخله. محا هوسي بكِ كل ما عداك. أصبح الجميع غير مرئيين في حضورك، شعر الجميع أنهم مستبعَدون. مثل الأشجار المزروعة في الظل، ازدادت العائلة التواء وتشوهًا في محاولة أفرادها الجائعين للوصول إلى القليل من الضوء. وأصبح وصولهم اليائس عبئًا مزعجًا.

بالطبع، لا بد أنني عرفت في مكان ما أن سلوكي كان وحشيًا ومثيرًا للاشمئزاز. لكن الجوع الصالح لـ«رجل الظل» طغى على ذنبي. قلَب الطاولة ولام أفراد العائلة لكونهم

محتاجين ومثيرين للشفقة. دفعهم بعيدًا كما لو أنهم هوام طفيلية تسبب الحكة. كان لديه شخص مميز واحد فقط، وكان ذلك الشخص أنتِ يا «إيفي». ولم تكن لديه رغبة في إخفاء الأمر أو قدرة على ذلك. بدأ أفراد العائلة في احتقارك بسبب ذلك. بهذا المعنى ورَّطتُك لتكوني مكروهة. وسيصبح ذلك جزءًا مما دمرك. لم يستطيعوا أن يلوموني. كنت الزوج. كنت الأب. كانوا بحاجة إليّ. لذلك لاموكِ. كنتِ سبب حرمانهم. كنتِ سبب غضبي. كنتِ السبب في أن كل شيء سار على نحو خاطئ. سرقتِ قلبي. نفيتِهم إلى الظلام. كان اسمك «إيف» [حواء] وتسببتِ في هبوط العائلة. كنتِ في الخامسة من عمرك.

وكيف لك أن تشعري بالاتساق مع نفسك؟ كنت خائنة، لصة، أنانية، شديدة الشعور بغريزتك الجنسية، شديدة القوة، تستنزفيننا تمامًا، موصومة ومُدانة، منبوذة للأبد خارج حديقتهم الموحشة. استمرت ليالينا الغسقية. لكن «رجل الظل» كان جريحًا وشرِهًا بشدة. مع كل تجاوز فُتح باب جوع آخر بداخله. مع كل تعدٍّ مرّ من دون عقاب شُجعت جراءته.

عشنا في عالمين مختلفين، أنتِ وأنا، يا «إيفي». النهار والليل. لكن بعد مُضي الوقت صار الخط الفاصل بينهما عصيًا على التمييز. كانت مشاعر اشتياقي وعشقي وهوسي

بالغة القوة وبدأت تنزف في كل الأنحاء.

لقد أعدتِني من عالم الأموات ذات مرة من قبل، أيقظتِ قلبي وأشعلتِ جسدي. تدفقت رائحتك الحلوة ولمستك وطاقتك الطفولية خلالي مثل دماء جديدة. ومثل مصاص الدماء، احتجت إليها الآن لأعيش. احتجت إلى المزيد. احتجت إلى استنزاف كل بوصة منكِ، وأصبح هذا عنفًا.

ما زاد من غمِّي، أن أمك رتبت إجازة لها ولي. توهمت أنها فعلت ذلك لتخرجني من المنزل بعيدًا عنكِ. كانت عطلة مؤلمة في إحدى تلك الجزر الكئيبة وثملت كثيرًا. لم أستطِع تحمُّل أنني قد تركتك. كنت مزعجًا ولا أُطاق.

حين عدنا، فتحت الباب وانتظرت أن تجري نحوي وتندفعي إلى ذراعيَّ كما فعلت دائمًا. لم تكوني في أي مكان بالجوار. وجدتك بالطابق العلوي تلعبين مع أخيك. دخلت الغرفة. بالكاد نظرت إليَّ. كان الأمر كما لو أنكِ لم تتعرفي عليَّ أو أنكِ قد نسيت من أنا. كان على أمك أن تقول:

- «إيفي»، ألا تريدين أن تحيِّي والدك؟

سرت نحوي بطريقة لا مبالية، تنهدت كما لو أنكِ متضايقة من الالتزام بأداء هذا الطقس، وبالكاد قبَّلت خدِّي. ثم استدرت وعدت إلى لعبتك من دون حتى أقل ابتسامة أو

نظرة. غاص قلبي. هذه ليست ابنتي. ما الذي حدث ليجعلك هكذا؟

قلت محاولًا الاستحواذ على اهتمامك بطريقة عابثة لإخفاء ذعري وشعوري بالدمار:

- «إيفي»، بوسعك أن تفعلي ما هو أفضل من ذلك من أجل أبيك.

- أنا مشغولة الآن يا «أبي».

صفعة على الوجه. أغلق الباب. تمزَّق القلب.

أنتِ الآن تتنافسين مع أمك. وكيف لكِ ألا تفعلي؟ يا له من مثلث قد خلقته. يا له من اضطراب نفسي. لقد أصبحت أمك غريمًا لكِ بدلًا من أن تكون حليفًا. أخذت زوجتي الأخرى بعيدًا وكنت مهجورة وكسيرة القلب. وبدلًا من رؤية مدى إمكانية أن يكون استيعاب هذا الأمر مستحيلًا في عقلك ذي السنوات التسع، كنت في حالة انفعال شديد، محنقًا بفعل الرفض. كيف تجرُئين على سحب حبك مني وأنا مخلص لكِ بالكامل؟ كيف تجرُئين على التفكير في أن لديكِ القدرة على قطيعتي وأنا والدك؟

لم أراعِ قَطُّ الألم الذي تشعرين به أو كيف يجب أن

تشعري لأنني تركتك لأيام لأكون مع شخص آخر. لم أتوقف قَطُّ لأفكر كيف يجب أن يكون أمرًا موجعًا تمامًا أنني جعلتك تعتقدين أنكِ الشخص المميَّز، لكن فقط في السر ومن دون أن يعرف أحد. كان ما فعلته أمرًا مقززًا. إلى أي مدى لا بد أن تكوني معذَّبة، غيورة على نحو مفجع. وبعد ذلك بسنوات، حين أصبحت لديكِ علاقات متسلسلة قهرية مع رجال متزوجين، أعلم أن هذا النمط قد انطبع هنا. هنا، حيث أصبحت ترين نفسك كشخص ثانٍ، دائمًا وفقط رقم اثنين. لن تكوني الأولى قَطُّ ليتزوجك أحد أو يختارك. لن تكوني قَطُّ جيدة بما يكفي لتفوزي بالاهتمام الوحيد لحب أي شخص. فقط العاهرة التي زاروها بعد حلول الظلام.

لكنني لم أفكر أو أشعر بأيٍّ من هذا حينها. كنت أفقدك. أصبت بالذعر. استطعت الشعور بارتيابك وهو يبزغ، بتردد وشك جديدين. كنت فطيرة حلوة، «إيفي»، لكنكِ أيضًا طفلة شرسة ومتحدية. لم أعد أستطيع الثقة بأن تظلي مخلصة لي. اضطررت إلى ممارسة السيطرة، لهذا تولى «رجل الظل» زمام الأمر. لا أعرف إن كنت أستطيع الاستمرار إلى أبعد من ذلك. أتساءل إذا كان إخبارك بما حدث لاحقًا يساعدك حقًا، «إيفي». نعم، أعلم أنه ما من اعتذار من دون محاسبة شديدة التدقيق. لكنني أتساءل بجدية عمَّا إذا كان نبش عمق وحشيتي وتأكيدها لكِ يمكن أن يكون تدميرًا أكثر منه علاجًا. هل ستخدم معرفة

التفاصيل الدقيقة القاسية لأفعالي الآثمة كراهيتك لذاتك، أم ستخدم تحررك؟

في ذلك الحين، كان لكل شيء منطقه ومساره الخاص وكان يؤججه غضبي الشيطاني. لقد خنتني. لقد دفعتني لأصبح هكذا. كنت تهددين بقتلي، بأن تسحبي حبك. كانت هذه مسألة حياة أو موت. كان عليَّ أن أفعل أي شيء وكل شيء لأبقيك تحت سلطتي.

تلك الليلة، أتى «رجل الظل» إلى فراشك لكن قواعده قد تغيرت. كان عدائيًا ونافد الصبر. شق أغطية الفراش ليرجعها إلى الخلف. جذب ساقَيك بقوة وبسرعة ليباعد بينهما. حركك في الفراش بقسوة. أخذ ما أراد.

لم يعد يتظاهر بكونه معالجًا: كان صيادًا، وأنتِ، لم تعودي مريضة، لكن فريسته. كنت مرعوبة. أشعرت صدمتك وحكمك «رجل الظل» بالخزي واستفزت ثائرته أكثر.

كانت هذه الليلة تبديدًا لأي تظاهر بالتكافؤ. كان هو السيد. كان سيُسيِّر الأمور. التمست منه التوقف، حاولت دفعه بعيدًا، كنت مذعورة ومن الواضح أنكِ قد توقفت عن التنفس. بدا أن عينيك المفتوحتين على اتساعهما تصرخان.

أصابعه، الشبيهة الآن بمخالب الصقر، توغلت إلى ما هو

أبعد. شقت خلال عضلتك المشدودة. مزقت لحمك الرقيق. نتفت الريش الناعم. خمشت وخمشت البوابة الذهبية لحديقتك الثمينة، وحين رفضتِ الدخول، اتخذت طريقها إلى الداخل بالقوة. ترنحت من فجوره. قاتلت وقاتِلت ثم توقفت عن القتال.

كان «رجل الظل» يدمر الحنان الذي تاق إليه أكثر من أي شيء آخر. الحنان الذي جعله عاجزًا ومكشوفًا. الحنان الذي جعله سجينك. لن يُحتجز كرهينة مرة أخرى. كانت هذه أرضه وهذا اجتياحه العظيم.

حتى حينما لمست أماكنك الخاصة بيديَّ وقوتي لم أُستثر إلا في بعض الأحيان. لم أضع قضيبي بداخلك قَطُّ. نادرًا ما حصلت على انتصاب. كنت منفصلًا وغير مشارك على نحو غريب. ولماذا أخبرك هذا، «إيفي»؟ أهكذا ستفكرين بي على نحو أفضل؟ أنني لم أفعل ما لا يمكن تصوره؟ أنني لم أتمادَ كثيرًا؟

حسنًا، هذا مراوغ كليًا. لقد اغتصبتك، «إيفي». اغتصبتك كأب طبيب واغتصبتك الآن. اغتصبتك بمداواتي المُغوية واغتصبتك بأصابعي الخشنة. اخترقتك مرارًا وتكرارًا. أتوغل أعمق وأعمق إلى داخل المكان الذي قد تتأذين فيه أكثر. أقهرك، أرغمك ضد إرادتك. كنت البلد الذي أطالب به. الأرض المنتزعة. غنائم الحرب. ليس مهمًا أنني كنت أسلب

الأرض وكل ما نما هناك ما دمت أملكها، ما دامت لي. من الأفضل أن تكوني منكسرة ومنحنية. أسهل للأسر. أسهل للسيطرة.

لقد أهنتني بتأكيد لا تبعيتك وفكرك المستقل، والتشكيك في سلوكي وولائي. لقد نزعت القناع عن وحشيتي الأنانية وقسوتي عديمة الرحمة وبالتالي طبيعتي الحقيقية كمجرم ومحتال. وقد هددت بسحب حبك. كل هذه كانت جرائم كبرى في محكمة «آرثر إنسلر». هل ظننت أن تكتيكاتي الجديدة ستنجح في استعادتك؟ هل إعتقدت حتى أن ذلك كان ممكنًا حينها؟ أم أن الأمر كان مجرد قسوة واضحة وممارسة للقوة الوحشية؟ لأنه ما الاغتصاب إن لم يكن هذا؟ إن الخلط بينه وبين الجنس خطأ فادح. إنه تشنج هائج، تعدّ عنيف، رغبة في الهيمنة والتدمير. مثل صاروخ حراري يبحث عن الجزء الأشد ضعفًا في جسد الضحية لإلحاق أكبر قدر من الضرر. إنه عقاب، إنه تسلُّط. إنه اجتثاث التهديد، الهدم الإرادي لكل الحدود التي تجعلنا بشرًا.

وبدا الأمر كله ضروريًا ومُقدرًا. أتى مثل موجة ضخمة من داخل أعماق جسدي. كان سحيقًا بمساره واتجاهه الخاص. كان ثعبانًا ناريًا غير ملتف، فحلًا محبوسًا عند البوابات، يتجسد الآن في صورة واقعية. كان مُخزيًا ومنتصرًا.

ومثل سحابة نووية، مذهلًا على نحو مرعب. الاغتصاب هو الانكسار المنحرف المتحدي لكل ما هو منكَر ومرفوض وغير مسموح به في الرجال، فُكَّ من عقاله وانطلق بأقصى سرعة؛ هو المظهر الذي يبدو عليه امتيازُ أن تكون الأقوى في حالة هياج. استمرت هذه الليالي الهمجية لفترة طويلة للغاية. تحدى «رجل الظل» كل محذور، لكن توابع الصدمة كانت في كل مكان.

بدأ الأمر بنوبات الهلع الليلية. كنت توقظين من بالمنزل بصرخات مرعبة، تتقلبين، تهذين بجنون في فراشك. كانت أمك تذهب لتواسيك وكنت تدفعينها بعيدًا، وأنتِ تصرخين:

- أبعدي يديك عني. اتركيني. اخرجي. لا تلمسيني.

لقد استولى عليكِ الظلام والرعب. كنت ممسوسة. استمرت نوبات الهلع الليلية من دون انقطاع وبدا أنها تزداد سوءًا. نادرًا ما نمت. فقدت شهيتك. بدأت أمك تشعر بالقلق من أن شيئًا ما قد استحوذ عليكِ، وبالطبع قد فعل. أرادت أن تأخذك لرؤية شخص ما لكنني أصررت على أن لدينا تاريخًا من اضطرابات النوم في العائلة. بدأت علامات اشتهائي الجنسي للأطفال بالنزيف في كل مكان.

ثم بدأت حالات الإصابة الرهيبة. كانت أمك تجدك في الحمام تبكين في الساعات المبكرة من الصباح. تحترقين،

قلت إنكِ تحترقين. وكنت تمسكين نفسك بين ساقيكِ وترتجّين وتتأوهين وترتجّين وتبكين. لا شيء أمكنه تهدئتك. كنت تتصرفين بهستيرية. أخذتك أمك إلى الطبيب ثلاث مرات على الأقل. كان التشخيص عدوى المسالك البولية المزمنة. لكن لم يتمكن أحد من تفسير كيف بدأ الأمر.

- ما الذي حدث لفتاتنا يا «آرثر»؟ كيف يمكن أن يصيبها كل هذا في وقت واحد؟

استطعت أن أشمّ شكها. وفي الوقت نفسه بينما كنت على وشك أن أُضبط بالجرم، كان من الواضح أن قوة ما قد استولت عليكِ وكانت تأخذك في اتجاه سيِّئ للغاية. تغيَّر سلوكك. أصبحت فجأة متجهمة وغير متجاوبة. لم تعودي خالية البال، عذبة الحديث، مُحبة للاستطلاع، أصبحت مكتئبة ومنطوية.

تحركت مثل الشبح. نادرًا ما رفعت رأسك وقلّما تحدثت. لم تغسلي شعرك قَطُّ وكان دائمًا مفتولًا ومتسخًا. عجزت عن التركيز في المدرسة وكان أداؤك سيِّئًا في الفصل. لم تتمكني من اجتياز امتحاناتك. بدوت عاجزة عن تذكُّر أو استيعاب أي شيء على الإطلاق. كنت تتحولين إلى غبية. خُفِّض مستواك إلى الصفوف الأدنى وفقدت أقرب أصدقائك. استطاع الأطفال الآخرون أن يشموا يأسك

وتجنبوك مثل الطاعون أو ضايقوك واستهزأوا بكِ. احتقرتك بسبب هذا الضعف. لكن كيف كان لي أن أعترف أنني كنت المسؤول عن انحدارك؟ كيف كان لي أن أتحمل النتيجة البيّنة لوحشيتي؟ بدلًا من ذلك، أذللتك أكثر وجعلتك تشعرين أن سوء أخلاقك قد أدى إلى حدوث ذلك. إن فطيرتي الحلوة، من خلال إصرارها ورفضها، قد أصبحت فتاة قذرة مخزية.

في مثل هذا الوقت تقريبًا استدعينا إلى مدرستك ذات يوم. كنت في العاشرة من عمرك تقريبًا. وجدناك في مكتب المدير، عيناك منتفختان من البكاء، فستانك الصغير موحل وفي حالة فوضى. لقد طاردك ولدان من المدرسة في نهاية اليوم، وهناك، في منتصف الساحة، ألقيا بكِ على الأرض وجذبا سروالك الداخلي أمام مئات الأطفال المتفرجين. كان من المستحيل مواساتك، كنت تنشجين، وتثيرين الشفقة. كنت أشتعل غضبًا وألقيت باللائمة عليكِ. قلت لكِ أن تتوقفي عن بكائك. كيف أمكنك استفزازهما وترك ذلك الأمر يحدث؟ ما الشيء الفاسق الذي فعلته لجعلهما يفعلان هذا بكِ؟ تخيلت أنكِ تلاعبت بهما كما تلاعبت بي. كان الموقف ينقلب. لم أطلب منكِ قَطُّ تفسير ما حدث. لم أواسيك أو أقف إلى جانبك.

أتيت إلى فراشك في تلك الليلة. هل تخيلت أنني سأبطل

كل هذا بمجرد تصحيح لطيف؟ هل اعتقدت حقًّا أنه ببضع كلمات مطمئنة ولمسة مهدئة سوف تتغيرين فجأة إلى ما كنت عليه؟ هذا تفكير سحري فعلًا! لقد حطمت هذا الفنجان الخزفي الرقيق إلى مليون قطعة ولن يجعله أي قِدر من العذوبة أو السحر سليمًا كما كان. فورًا عقب دخولي إلى الغرفة شعرت بطاقة سامة. كنت ملتفتة بعيدًا على جانبك، فيما يبدو ملتصقة بالجدار. لمسك «رجل الظل» وحاول أن يقلبك، لكنكِ كنت باردة، متيبسة كجثة. حتى «رجل الظل» توقف. هزَّك ونخزك مثل كلب مذعور مع سيد غير مستجيب، هامسًا:

ـ استديري، «إيفي»، استديري. استيقظي. انظري إليَّ.

ظللت متجمدة. لا نفَس. لا حركة. لا دفء ينبعث من جسدك الصغير. كان الأمر كما لو أنكِ غادرت ذاتك وذهبت للبحث عن عائلة أخرى في مكان آخر. كما لو أنكِ غادرتني ولن تعودي أبدًا.

ـ «إيفي» استيقظي، استديري، عودي. أنا هنا.

ما من نفَس، ما من حركة، ما من صوت. هل متَّ حقًّا أم كنت مثل حيوان «بوسوم» تحمين نفسك من أحد الضواري، مستعدة لإدخال نفسك في حالة تماوُت.

شعرت بفزع مثير للغثيان. لقد فعلتها. لقد قتلتك، اغتلت روح الكائن الذي عشقته أكثر من أي شيء، الشخص الذي منحني الحياة. لقد انتهكت جسدها، خنت ثقتها، لقد انتزعت الفتيلة المشتعلة من أشد الشموع إشراقًا. أردت أن أجثو على ركبتيّ وأعوي وأتوسل من أجل المغفرة. بدأت أهزك وأهزك كما لو كنت سأعيدك:

- استيقظي، «إيفي»، استيقظي.

ظل جسدك صلبًا ومتيبسًا وأنا أقلبك. أخذت أهزك بقوة أشد وأشد.

وبعد ذلك فتحت عينيك. لم تطرفي أو تنظري باتجاهي. بدلًا من ذلك كانت عيناك تحدقان بعيدًا، بعيدًا جدًّا في كون آخر. عالم سيضم أعمق أسرارك. عالم سيؤوي قلبك المجروح. عالم لن أُدعى إليه أبدًا. لقد فقدتك. قاتل الروح.

كان «رجل الظل» أشياء عديدة إلا أنه ليس مشتهيًا للأموات. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي يزور فيها غرفتك ليلًا. لقد شئت موتك كي لا يستطيع أن يأخذ المزيد من الحياة. لكن هذا لا يعني أنه لم يكن غاضبًا وتواقًا للانتقام. بعد ذلك بعدة أيام، قصصتِ شعرك. قطعتِه بشراسة إلى فوضى قبيحة. بعد ذلك رفضت ارتداء الفساتين. ارتديت فقط ملابس الصبيان. تغيرت شخصيتك

بين ليلة وضحاها. أصبحت متحدية وحرونًا. كانت إجابتك على كل سؤال «لا» وقحة. لم تبتسمي قَطُّ. طالبت بأن تناديك العائلة «إيف» ورفضت الرد على «إيفي»، لقب التودد المحبب لديَّ. لم تطلبي المساعدة أو تعبري عن أي احتياجات قَطُّ. لم تسمحي لأحد بالدخول.

وجهك الجميل فقد جماله. شفتاك مزمومتان، وجنتاك وجبهتك متوترة في عبوس دائم. مشيت بترهُّل ورفضت الوقوف باستقامة. سلوكياتك على المائدة كانت مقرفة. عيناك البنيتان المتلألئتان فيما مضى كانتا آنذاك نهرًا موحلًا من رثاء الذات والأسى. شعرك، ما تبقى منه، فقد لمعانه. كنت تتحولين بسرعة إلى طفلة مملة، ومزعجة، ومحرِجة.

واحتقرتك لذلك، الضحية التي اغتلتها تعذبني بالإقامة في منزلي، تجبرني على أن أشهد كل يوم تَحلل وتعفن كيانها اليافع. تجبرني على مواجهة عواقب أفعالي الدنيئة. كان أمرًا لا يطاق. كان جنونًا. أين ذهبت حبيبتي «إيفي»؟ فطيرتي الحلوة؟ لكنني أعرف الإجابة بالطبع. كانت ثقتها، وقوة نورها، وطيبة قلبها، وجمالها أكثر من اللازم بالنسبة إليَّ لذلك انتهكتها واجتحتها وحطمتها وشوهتها وكذلك فعلت بسماتها تلك. ثم، بعد أن أصبحت ذلك المخلوق المعطوب المفعم بالمرارة، كنت مشمئزًا وألقيت باللوم عليها. سحبت حبي. نعم، سحبت حبي منكِ. لم أُعِده لك قَطُّ.

عشت بعد ذلك لإيذائك. لإيذائك بسبب أذاك الذي لا يمكن إخفاؤه. وهنا بدأ عهد العقاب والعنف والإرهاب.

أتذكر بوضوح الليلة التي بدأ فيها الأمر. كنت واقفة في حجرة المعيشة وقد بلغت العاشرة لتوّك، مترهلة وترتدين «تي-شيرت» طلبت منكِ مرارًا ألا ترتديه، تسألين عمَّا إذا كان بإمكانك قضاء الليلة في منزل صديقتك «جودي». كنت عذبة بشكل لعوب، على أمل أن يخفي هذا الالتماس المعسول يأسك. قلت لا. قلتها فورًا. لا أعرف لماذا. ربما لأنني عرفت أنه شيء أردتِه بلهفة. ربما لأنكِ كنت تجرُئين على إظهار استقلاليتك. ربما لأنه لم يعد هناك شيء أحببته بشأنك ولم أكن على وشك أن أكافئك بأي شيء.

عبست وارتسم على وجهك تعبير فظيع. لم يعجبك ردي. قلت لكِ:

- ابتسمي حين أقول لكِ شيئًا ما، ابتسمي حين أعطيك ردي.

لم تبتسمي. تابعتِ النقاش:

- لماذا؟ «جودي» تسكن في أول الشارع فحسب، ليست لديَّ مدرسة. أعددنا ترتيبًا.

طفلة وقحة. كيف تجرُئين على التشكيك في سلطتي؟

- ليس عدلًا يا أبي. ما السبب؟

- قلت لكِ لا، يا «إيف». هذا سبب كافٍ. ليس عليَّ أن أقدم لكِ تفسيرًا.

ومرة أخرى، قلت لكِ أن تبتسمي. لم تبتسمي. حدقت في وجهي بازدراء.

- سأمنحكِ فرصة واحدة أخيرة.

كان حنقي يغلي، وجهي مشتعل.

وانتظرت طويلًا قدر استطاعتك، تدفعينني وتتحدينني لعبور تلك الحافة. ثم حوَّلت وجهك إلى أكثر ابتسامة متكلفة خالية من الاحترام، ابتسامة مستهزئة ترفض أمري وتسخر منه.

ووثب «رجل الظل» في الحال وبكل قوته ضرب يده بشدة عبر وجهك المتمرد. طار جسدك بالكامل عبر الغرفة حتى اصطدم بالجدار، وسقطت مثل دمية قماشية بالية مهلهلة إلى الأرض فوق زغب السجاد وفُتاته. ومن خلال دموعك وصدمتك، ابتسمتِ أشد الابتسامات سقمًا. ابتسمت وابتسمت كما لو كنت دمية آلية مخبولة. لم تتوقفي عن

الابتسام. لم تعودي هناك. كان الأمر كما لو أن «إيفي» قد أزيحت وهذه «الإيف» الجديدة، الشبح المتجاسر، قد تولت الأمور الآن. «رجل الظل» مقابل «إيف الظل». لقد أعلنت الحرب.

كانت أمك عاجزة عن الكلام لكنها لم تتدخل. أعتقد أنها كانت تنتظر هذه اللحظة وتتوق إليها سرًّا حين يبطل السحر وأتنكر لكِ وأعود إليها. أطلقت العائلة بأكملها تنهدًا جماعيًا. كان لديهم مقعد في الصف الأمامي لهذا المشهد الدرامي والوحشي الذي اغتيل فيه على الملأ عشقي المهووس وتفانيّ المستنزِف للصغيرة «إيفي».

وبعد أن تعرضت العائلة للحرمان والتجاهل لسنوات عديدة، كانت أكثر من سعيدة للانضمام إلى جيشي النبيل. كانت «إيف» هي العدو الآن. ليس الزوج والأب. تحالف أفراد العائلة معي بإخلاص، لتسليحي بمعلومات من أجل عقابي اليومي وتأمين إبعادك الدائم. لقد طُردت من الجنة في ذلك اليوم. أنتِ، من شغلت أعلى مكان فيما مضى، أُلقيت من السطح لتعيشي بالخارج وحيدة في التراب. أنتِ، من كنت محور قلبي العطوف، أُبعدت إلى المَظهَر.

وبعد إخبارك بهذا، أنا مفعم بالرعب والندم، أشعر للمرة الأولى بما شعرت به. الصدمة. عدم التصديق. الوحدة المطلقة. أن تكوني منفيَّة، أن يتم إيهامك أنكِ كنت كل

شيء ثم بضربة عنيفة واحدة تُمحين إلى لا شيء. كيف بإمكانك، في العاشرة من عمرك، أن تتعاملي مع هذا بأي حال؟ من الذي يمكنك اللجوء إليه طلبًا للمساعدة في حين كنت قد ألبث الجميع ضدك؟ كيف يمكنك ألا تفقدي صوابك بينما كنت الآن تؤخذين على أنكِ حاملة لكل ما هو مخادع وخبيث؟ كبش فداء ووصمة عار، هذا ما أصبحت عليه، في تلك اللحظة، فتاة تهوي بسبب خطايا أبيها. أراك تجفلين. حذرتك أن هذا لن يكون سهلًا.

إذا كان في الأمر أي عزاء، فإن اغتيال ولعي بكِ قد اغتالني في الأساس. كل ما كان مريرًا وبغيضًا انتشر بداخلي كورم خبيث. أصبحت مكتئبًا ومصابًا بخيبة أمل مزمنة. ثملت بشكل لا يمكن السيطرة عليه. خبا سحري بينما كبرت إلى الستينيات من العمر. قلص نفاد صبري وغروري وعدم احتمالي دائرتنا. أصبحنا معزولين أكثر فأكثر، وعلى الرغم من أن أمك قد استعادتني، فقد سُلِّم إليها وحش.

أدرك أن كيفية تأثير أفعالي عليّ ليست موضع اهتمامك (ربما ميلي على نحو مؤلم لاستعادة ذكرى إخباري لكِ بعد كل مرة أضربك فيها أن الأمر يؤذيني أكثر مما يؤذيك)، لكنني أردتك أن تعلمي أن هناك شيئًا من العدالة. لأنني إذا كنت قد تعلمت أي شيء هنا في هذه المملكة المعذّبة فهو

أنه لا يوجد أذى نُنزله بشخص آخر بوعي ولا يعود إلينا أشد بعشرة أضعاف.

كنت متمرسًا وضليعًا في فن كسر الناس. ألم أُكسر في طفولتي الأولى؟ أُفصم من ذاتي؟ أُجبر على أن أكون شخصية مهووسة بالعظَمة ومستحيلة؟ ألم يقتل والداي، في سعيهما للحصول على «ملكهما الإلهي»، أي مظهر من مظاهر ضعفي، أو تعاطفي، أو تواضعي، أو شكي؟ ألم يُعلماني من خلال أشد تقنيات تربية الأطفال الألمانية صرامة أن وظيفة الوالد كانت إزالة كل التصلب والخبث في الطفل من خلال التعنيف والعصا؟ أن العصيان شكّل حربًا ضد الوالد وأن أي عناد ينبغي أن يُقابل بالضربات؟

غُرِست آثار ذلك التدريب عميقًا في داخلي، وقد أمدتني السنوات المروعة مع أخي «ميلتون» بأدوات إضافية لإلحاق العذاب. أرى هذا الآن. لم أكن واعيًا بأيٍّ من هذا حينذاك. وفي الحقيقة كان إنكار العنف والقسوة اللذين تحملتهما من والديّ ومن «ميلتون» هو ما سمح لي بأن أرتكب في حقك عنفًا أعمق وأشد بطشًا. وكانت هناك مهمة موازية وملحة، أن أُبقيك خاضعة وهادئة حتى لا تفضحي سرّنا أبدًا. أصبحت جلادًا صالحًا.

عملت يوميًا على تدمير شخصيتك وكسر إرادتك. اختلقت الخلل، والفشل، والأخطاء لديكِ. أصبحت بارعًا في ذلك

الأمر، دائمًا أدرس نقاط ضعفك وأنطلق منها. مثلًا، كنت أعلم أنكِ طفلة خلوقة للغاية. تشاركت كل شيء حتى حين أردته لنفسك بشدة. كان لديك إحساس كامن ولازم بالولاء. لم تشي بأخيك أو بأختك قَطُّ، ولا حتى إذا كان ذلك سينفعك. لم أتمكن قَطُّ من جعلك تنقلبين على الآخرين. عرفت كيف كان مهمًا بالنسبة إليكِ أن تكوني صالحة. عرفت أن حياتك اعتمدت على ذلك بطريقة ما. لذلك جعلتك مخطئة وسيئة. كان هذا لزعزعة استقرارك. ومن ثم سأبقى في السلطة. ثم أحتفظ بالسيطرة على مرويَّة العائلة، وهذا ما فعلته حتى النهاية.

جعلتك تصدقين أشياء عن نفسك لم تكن صحيحة قَطُّ. أولًا وقبل كل شيء، جعلتك تصدقين أنكِ كنت كاذبة. المفارقة أنكِ كنت طفلة صادقة إلى درجة الدقة. لكن تهديد إرهابي ووحشيتي المتواصلين جعل من المستحيل بالنسبة إليكِ أن تخبريني بالحقيقة، وفي كل مرة كذبت، كان ذلك إثباتًا ووسيلة هجوم. ولماذا كان هذا الصدق شديد الأهمية بالنسبة إليَّ؟ لماذا كان هوسي المستمر؟ الإجابة واضحة الآن، بعد أعوام من الاضطراب اللانهائي. حين تسيطر كذبة على كيانك، طبِّقي التكتيكات التي تعلمتِها في مدرسة السلطة والازدواجية. اقلبي الموقف. اجعلي ضحية كذبتك هي الكاذبة.

التزمي بإخلاص بهذا الأمر، زيني القصة باستمرار، كرري المرويَّة بأمانة وثبات حتى تنسي وجميع من حولك الكذبة الأصلية في النهاية وبالتأكيد تفقدين الإلزام، أو الإرادة، أو الشجاعة لتعقُّب الحقيقة. أليست هذه قصة قدر كبير من التاريخ؟ القوي يخلق الكذبة، يُعلِّبها، ويسيِّرها في طريقها للأبد.

بالطبع، تكرار الكذبة وحده لن يكون كافيًا لترسيخ المروِيَّة أو تأمين ديمومتها. هذا مشروع أكثر استفاضة. لا بد من تغيير كامل البيئة المحيطة بالكذبة أيضًا. لا بد أن تعملي على كسر قدرة الجماعة المحيطة (الذين يعرفون الحقيقة بوعي أو بلا وعي) على تصديق أنفسهم أو تصديق الآخرين. لا بد أن تضعي مخططًا سيقنعهم بثبات ويقين بغبائهم وافتقارهم للمصداقية. كرَّست قدرًا كبيرًا من الطاقة والوقت لهذا المسعى. وأحد أكثر الجوانب التي تقشعر لها الأبدان، اكتشاف أنني بإقناعك أنتِ وأمك بغبائك، جعلتك غبية بالفعل. بالطبع جعلني هذا أحتقرك أكثر فحسب.

كانت المصداقية شيئًا بلا معالم وشيئًا محدَّدًا في آنٍ واحد. إنها مشبعة بصفات غير ملموسة: يقين، ثقة، هدوء. هؤلاء الذين تعرضوا للضرب وحُمِلوا على الشعور بأنهم حمقى لا قيمة لهم لا يمكنهم أبدًا إظهار مثل هذا اليقين والاتزان باستفاضة. إنهم يبدون يائسين لأنهم

يائسون. لم يصدِّقهم أحد قَطُّ، ولذا فهم مُجبرون على اللجوء إلى تدابير متطرفة: الانفعالية، المبالغة، تضخيم الأمور. يتحدثون بصوت أعلى. يلوِّحون بأيديهم. يبدون هستيريين. «إيف»، بدأت تنمِّقين الحقائق وتبالغين. ستقولين لي:

- أبي، أريد أن أقود سيارة إلى المدرسة. الجميع في صفي يقودون سيارة.

وسأقول:

- الجميع، يا «إيف»، كل شخص؟

وستقولين:

- نعم، نعم، نعم الجميع.

وسأقول:

- حسنًا إذن، اذهبي واجمعي أسماءهم، وأحضريها إليَّ. أريني الجميع.

سيسقط وجهك عند هذه النقطة. أُغلِقت القضية. أنتِ مذنبة بالتهمة الموجهة إليكِ.

إنها حلقة مفرغة، حقًا، وهي الحلقة التي استغللتها. ترفض تصديق الشخص. يصبح متطرفًا كي يثبت قضيته. تمحو مغالاته ومبالغته في التقدير مصداقيته، وفي النهاية، بمُضي الوقت، يبدأ أيضًا في الشك في نفسه فضلًا عن جميع من يشهدون هذا الأداء المستمر. جاءت العائلة بأكملها لتسخر منكِ، يا «إيف»، ومن تصريحاتك الضخمة المستندة على حقائق قليلة أو معدومة، ومن مبالغاتك شبه الخيالية لكل شيء تقريبًا، واستعراضاتك العاطفية المتطرفة في توصيل هذه السخافات. وهكذا استوفى المشروع نفسه وأصبحتِ الشخص الذي لا يمكن الوثوق به، الشخص الذي لا يصدقه أحد.

بوسعي الآن أن أرى كيف سلبك هذا الأمر التأكد من جديتك وذكائك. أعرف أنكِ ابتُليت باعتقاد معذِّبٍ ومضنٍ أنكِ غبية في مواجهة الآخرين الذين لم يضطروا إلى اللجوء إلى مثل هذه المبالغة كي يراهم الآخرون أو يصدقوهم. كان الأمر أصعب مع أمك. كان عليَّ أن أجعلها تبدو غبية لكنْ ليست شديدة الغباء، وإلا فإن شرعية امتثالها لسلطتي ستصبح موضع شك.

كانت هجماتي على ذكائها أدق وأقل تكرارًا وكان لا بد من إدارتها بعناية، وإضعاف مكانتها بما يكفي لتأكيد الهيمنة الكاملة واعتمادها الكلي، لكنْ ليس إلى درجة شديدة

التطرف، لجعل الأمر يبدو كأن اختياراتها ليست نابعة منها.

أعلم أنكِ تتساءلين، هل كان كل هذا مناورة واعية من جانبي؟ هل تلاعبت وصممت هذا الخبث على نحو منهجي؟ والإجابة ليست واضحة. لن أكذب هنا، يا «إيف»، لقد أصبحت أحتقرك. لقد سلبتِني الحياة. لقد فتحتِ قلبي وجعلتِ بقاءه حيًا مشروطًا بوجود دماء جديدة ثم قطعتِ إمدادها من الشرايين. كنت رجلًا غارقًا صاحب امتيازات. هل علمتُ حينها أن ما كنت أفعله كان شيطانيًا؟ هل كان لديَّ حس أخلاقي داخلي بأن ما فعلته كان سيئًا ببشاعة؟ ربما، لكن حتى في أسوأ نوبات سخطي، في أشد هجماتي عنفًا، حين أتذكر وجهك الدامي أو الكدمات على ساقَيك أو الرعب في عينيك، حتى لو كان هناك إجفال عابر، فإن تبرير أفعالي دائمًا ما استوعب ذنبي أو شكي بنفسي.

بإمكاني أن أخبرك أنه كان لديَّ قلق. كان لديَّ سخط. كان لديَّ اكتئاب. هذا سبب أنني شربت كثيرًا. في ذلك الوقت، عزوت الأمر أكثر إلى اليأس الوجودي، وإلى ضغوط إدارة شركة. لكن خطر لي وأنا أطوف في «الليمبو» أنه ربما كان هناك مكان عميق بداخلي شعرت فيه بالفزع بسبب أفعالي كما شعرت بالفزع بسبب أبي وأخي. ما مقدار الوعي بالذات الذي توفره حياة الامتياز والاستحقاق لمن له الحق؟ إذا وُلدت في نموذج معين يخدمك، فما الذي يجبرك على النظر

إلى الخارج؟

قد تجادلين بأن هناك آخرين لُقنوا معتقدات مماثلة وجدوا الحافز للثورة. أشارت بوصلتهم الداخلية إلى أنهم كانوا ماضين في الاتجاه الخطأ وغيروا مسارهم. لم أقابل مثل هؤلاء الرجال قَطُّ. يبدو لي أن التغيير عادة ما يحفزه حرمان أو كارثة من نوع ما، حدث أو مجموعة حوادث من نوع ما تدفع المرء إلى الدخول في أزمة وانهيار. ما من رجل عرفته سيشكك في نفسه بصراحة أمام الجميع أبدًا. لن يعترف بالهزيمة أو الريبة أبدًا. وكما أخبرتك، كان إحساسي بالاستحقاق فولاذيًا وعصيًا على الاختراق. شعوري المبالغ فيه بأهمية الذات صد كل المقاصد الآتية. ولم يخطر ببالي قَطُّ أن أي شيءٍ شعرت بأنني مجبر على فعله قد يكون خطأ.

ولأنني، كطفل، كنت ممتلئًا بالتمجيد بدلًا من المواساة، انتصرت نرجسيتي على قدرتي على الرعاية.

هل كنت وحشًا متبلد المشاعر، أم رجلًا ذا قلب كسير تواق للانتقام؟ هل ثمة فرق؟ هل الأمر يهم؟ ليس من زاوية الألم الذي سببته لكِ قسوتي بالتأكيد. هل كنت مدركًا لـ«رجل الظل» عن وعي؟ ألم أكن شاهدًا على وحشيته؟ ألم يكن في وسعي إيقافه؟ هل كنت مضطرب العقل؟ سيكون هذا مخرجًا سهلًا.

كلَّا. لم أكن مجنونًا. كنت رجلًا قويًّا، ذا امتياز. عشت فوق هذا العالم، فوق النقد، فوق التأنيب. لقد تمت برمجتي لأسيطر، لأفوز أيًّا كان الثمن. كنت طفلتي. كنت أحد ممتلكاتي. ستتصرفين كما لقنتك أن تتصرفي. حين لا تفعلين ذلك، من واجبي أن أفرض الانضباط والعقاب اللذين سيعيدانك إلى صوابك. هكذا تربيت. كنت أفعل ما فُعِل بي. كنت أفعل كما تعلمت. لكن كانت هناك حقيقة أخرى، أشد شرًّا. كما اجتذبني «رجل الظل» عبر حدود الخطيئة حين كنت في الخامسة من عمرك، كان الآن يجرُّني إلى داخل الجحيم. بالتأكيد، كانت تربيتي هي التي فضلت أدوات العقاب المحددة هذه، لكن الأمر كان أشد رعبًا. يكاد الاعتراف أن يكون مستحيلًا. لكن في هذه اللحظة، أنا مهووس على نحو غريب بقصيدة لـ«ت. س. إليوت». قصيدة عن القطط كنت أتلوها عليكِ في الماضي في كثير من الأحيان:

تسمية القطط أمر صعب،

ليست إحدى ألعاب عطلتك فحسب،

قد تحسبني في البداية مجنونًا تمامًا

حين أخبرك، أنه يجب إعطاء القطة **ثلاثة أسماء مختلفة**.

قد تبدو هذه القصيدة مثل انحراف متناقض، لكنها ليست كذلك. كنت في السادسة عشرة. كانت لديكِ قطة. أحببتها كثيرًا. كانت غريبة بعض الشيء، لكنها جعلتك سعيدة للغاية. لم أكن أكترث بالحيوانات، لكن من خلال تقديرك العظيم والإبداعي، أصبحت أرى عجب هذا النمر المخطط بالأبيض والرمادي وطرافته. كان اسمها غريبًا. أعتقد أنه كان «باكهاند» [ضربة خلفية]. وبطريقة ما، في وسط هذه الحرب الدائرة بيننا، استدعت هذه القطة غير التقليدية تعبيرات مفاجئة ومبهجة في نفسي. في الليل، حين تعتري «باكهاند» نوبة من الاستثارة الجنسية، كنا نستمع إلى موائها الموجع يتردد عبر الجدران الخشبية وكنا نعوي في حرج وبهجة. حين لم تكوني في الجوار كنت أتسلل إلى المطبخ حيث لم أذهب قَطُّ وأطعمها سمك الرنجة المالح. كنت أهمس لها وكانت تتمسح بي وتتبعني من غرفة إلى غرفة. لم أكن قادرًا على إخفاء إلى أي مدى أسعدني هذا الأمر. وكنت تُصدمين حين تعودين إلى المنزل أحيانًا وتجدينها متكوِّمة، تُخرخر في حجري.

ابتهج الجميع بحبي للقطط، بما أنهم لم يروني مرحًا أو لطيفًا مع أحد سواك. أعلم كم كان يعني الأمر بالنسبة إليكِ أنني أصبحت أعتني جيدًا بهذا الكائن المكسو بالفراء الذي أحببتِه كثيرًا. أصبحت «باكهاند» مستودع حناننا، البقايا والتذكِرة لما عاش بيننا ولم يعد من الممكن التعبير عنه. هذا

المخلوق الناعم والنابض، أحد مظاهر فقدنا وتوقنا.

ثم حدث ما لا يمكن تصوره. كنتِ بعيدة لقضاء فترة بعد الظهر مع الأصدقاء. كنتُ بالمنزل حين سمعنا صوت صرير إطارات ثم بعض الهرج خارج المنزل. هرعتُ وأمك إلى خارج المنزل وصُدمنا لرؤية جسد «باكهاند» الخامل راقدًا في وسط الطريق. كنت في حالة انفعال شديد. ركضت إليها ومن دون حتى أن أفكر، التقطتها. كانت دامية ومكسورة لكن يبدو أنها ما زالت تتنفس. في تلك اللحظة وصلتِ وأنت تقودين السيارة. قفزت خارج السيارة وركضت لتري ما يحدث وحين رأيت «باكهاند» متدلية وتبدو هامدة بين ذراعيَّ، أطلقت صرخة حادة. صيحة لا تُطاق اخترقت جدران دفاعاتي المنيعة. وجدت نفسي أبكي. سالت الدموع على خديَّ. دموع الحزن على الحياة الهشة المسحوقة بين ذراعيَّ. دموع على كل الطرق التي خذلتك بها. دموع الفقد والندم على لامبالاتي، على هبتك الفريدة والرائعة، التي لم أحمِها لكن بدلًا من ذلك دمرتها. دموع ماثلت حزنك الموجع على تعزية أخرى سُلبت منكِ. دموع على هذه القطة، رفيقتك، صديقتك الدافئة، محطَّمة، مهشَّمة، مشرفة على الموت.

ورأيتِ دموعي. لم يكن بوسعي إخفاؤها عنكِ. وجعلك هذا تبكين أكثر، لكن في تلك اللحظة لم تكوني وحدك، كنت

أبكي معكِ. شعرت بألمك وكان ألمي. لأنه ربما للمرة الأولى والوحيدة، فُتحت نافذة على المنطقة المبهمة الرخوة في قلبي المعذَّب. وجدت نفسك هناك، يا «إيف». وعلى الرغم من أن تلك النافذة لم تُفتح مرة أخرى قَطُّ، كانت دليلًا لا يمكن إنكاره على قصة أخرى. أعلم أنها بقيت معكِ.

«باكهاند» لم تمت. تضررت مثانتها لكنها تعلمت التبول مرة أخرى. كُسر فكها وخُيِّط بالأسلاك في تكوين جديد. وجهها الذي كان محببًا ويشع إخلاصًا فيما مضى أصبح ملتويًا ومشوَّهًا. حتى ابتسامتها أصبحت تكشيرة. تمامًا مثل حبيبتي «إيف»، ترك العنف بصمته على جميع ملامحها. وتمامًا مثل ابنتي الشرسة التي لا يمكن إيقافها، كان لها تسع أرواح. تجاوزت إرادتها في الصمود اعتمادها على الجمال. لماذا خطر لي هذا الحدث الآن في أشق ساعات حسابي واعترافي؟ لا بد أنه يبدو مثل مفارقة وتشتيت يتسمان بالغرابة.

هذه الرسالة لم تكن سهلة. يتطلب كل اعتراف صرامة ودقة، كل منها يكشف القناع عن نية أشد إرهاقًا. كل منها يجبرني على استخدام عضلات مرتخية غير متمرنة على التدقيق الذاتي الأخلاقي. كل منها يمددني إلى ما بعد قدرتي العقلية. كانت حياتي خالية تمامًا من الوعي بالذات. لم يكن لديَّ أي دافع أو اهتمام لفحص أسبابي أو سلوكي.

ومن بين كل الأشياء التي أشعر بأشد الخجل منها، هذا الغرور، هذا الترفع والكبرياء. ومع ذلك فقد أصبح طبيعتي إلى درجة أنني لا أستطيع تخيُّل كيف أكون من دونه.

من دونه، كيف بإمكاني أن أكون رجلًا؟ يا إلهي، أن تكون ميتًا وما زلت قلقًا بشأن كونك رجلًا! حتى في «الليمبو» أشعر أنني مضطر لإثبات نفسي ولا أحد هنا. إثبات نفسي لله ربما. أن أظهر له أنني لن أهزم. أنني حتى في مواجهة العذاب الأبدي لن أتخلى عن هذا التكبر.

تطلبين مني أن أشكك في طبيعة ما يعنيه أن تكون رجلًا. وحتى الخضوع للتمرين يعتبر هزيمة.

المفارقة، بالطبع، أنني قد ضعت بالفعل. لكن العقل متاهة مغوية تموِّه قفصًا. وللمفارقة، أنا عالق في الاعتقاد بأنني إذا تخليت عن امتيازي سوف أتفكك، حتى وأنا عدم بالفعل.

نشأت في زمن يُثنَى فيه على الرجال للتحكم في عواطفهم وكبحها. كانوا ينالون الإعجاب لصمودهم الفولاذي ومعرفتهم للطريق. لم يعتذروا قَطُّ. لم يطرحوا أسئلة قَطُّ. لم يقدموا تفسيرًا قَطُّ. لم يكشفوا أوراقهم قَطُّ. لم يتحدثوا. كان صمتهم دليلًا على قوتهم وفحولتهم. كان من المتوقع أن يسودوا العالم وأن يقودوا بعزم وثقة. كان جوهر وجود الرجل أن يحافظ على مركزه.

وحتى في الموت، في غياب عن الجسد وبلا ذات ظاهرة ـ بقدر ما يبدو ذلك منافيًا للعقل ـ هناك جزء مني يفضل أن يواجه الأبدية في «الليمبو» المعذِّب عن أن يتخلى عن هذه الهُوية.

لأنه ما هو الإطار الآخر الذي أملكه لتفسير وجودي؟ ما هو الحد الفاصل الآخر الذي يمنحني قيمة أو معنى؟

لقد أصبح الأمر جليًا على نحو متزايد، كتابة هذه الرسالة لكِ، أن هيكل الهُوية هذا قد كان سببًا في ضرر عظيم لكِ وللآخرين وهو بالتأكيد سبب كوني عالقًا في طواف معذِّب. أرى الآن أن هذا المفهوم المحدَّد للرجولة قابل للتشكيك إلى حدٍّ كبير، بما أن العنف الشديد مطلوب دائمًا للحفاظ عليه. ويبدو لي أن أي هيكل، أُسس على الحاجة إلى تدمير آخر، ليس منصفًا أو قابلًا للدوام. لكن بقدر ما يمكنني فهم هذا الأمر بشكل تحليلي، فإن التخلي عنه مسألة أخرى بالكلية. لا يبدو الأمر أقل من مطالبة المرء بمحو الأنا الخاصة به. لأن هذا المخطط الأبوي قد غُرس في الخلاصة النفسية الأساسية: الأنا، الأنا العليا، الهُوية، الإنسان.

ربما كانت الطريقة الوحيدة للفناء هي ما دعوتني للقيام به: سبر الطبيعة الدقيقة للأضرار التي لحقت، وبذل قصارى جهدي لأتقبل كيفية تأثير سلوكي عليكِ، والثقة في أن

كيمياء هذا التمرين ستسمح لي أن أكون صادقًا أكثر فأكثر في سبيل خدمة حريتك. لذلك، فقد تجنبت هذه الشهادة الأخيرة لوقت طويل بما يكفي. يبدو تسطيرها في رسالة غادرًا وصادمًا. لا يمكن الرجوع فيها. والحيرة التي تكمن وراءها نخرتني وطاردتني مثل شيطان ولم تمنحني أي راحة. هل، في أعوام مراهقتك، شرعت في قتلك؟ هل فعلت ذلك بنيَّة واعية؟ على حدِّ علمي: هناك أكثر من حادثة كان بوسعي فيها أن أقتلك. لم أُقلع بعد المواجهة المرعبة الأولى. مع كل نزاع جديد، أصبحتُ أكثر عرضة للانفجار. عرفت أن الكحول كان وقودًا لـ«رجل الظل» ولم أتوقف عن الشرب. لم يكن خوفي على سلامتك عاملًا مثبطًا قطُّ. في الحقيقة، لُمتك في كل مرة على استفزازي واعتقدت، حق الاعتقاد، أنكِ كنت المسؤولة عن سلوكي.

ـ تنفس، يا «آرثر»، تنفس. فلتأخذني الآلهة إلى الجحيم!

أردتك ميتة، يا «إيف». حاولت قتلك في عدة مناسبات. كان عليَّ أن أُجهز على ما دمرته بالفعل. كان عليَّ أن أمحو الدليل. وأنتِ، كونك تملكين حدسًا قويًا، شعرت بهذه القوة الدافعة لقتل الأبناء. لكنكِ كان عليكِ إنكار الأمر لتحافظي على سلامتك العقلية. فكيف بإمكانك أن تعيشي وأنت تعلمين أن أباك كان يتآمر، بوعي أو من دون وعي، كي يقتلك؟ وخلق فعل الإنكار هذا نمطًا ستتعامين بفعله لاحقًا

باستمرار، وتنجذبين إلى ما هو أشد عنفًا وجرحًا. ستعرضين نفسك إلى خطر جسيم طوال حياتك، مرة تلو الأخرى، لأنك لم تستطيعي فهم طبيعته الخطرة ولأنه كان مألوفًا للغاية. كنت تبحثين عن الأشخاص والمواقف المؤذية على أمل أنكِ يومًا ما ستكونين قوية بما يكفي لقهرهم. والأكثر إثارة للخوف، ستصبح متعتك الجنسية ممزوجة بهذا الخطر في نهاية المطاف.

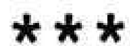
لقد جعلتك مازوخية.

وأعتقد أن ما تحدد على أنكِ شخصية انتحارية، في سنوات مراهقتك الأولى، قد يكون - في الحقيقة - أنكِ تريدين في النهاية أن تُقتلي وترتاحي من الإرهاب والفزع المستمرَّين. هناك حوادث تطاردني. أشارك تفاصيل كل منها على أمل أن تعزز محاسبة محددة وعسيرة ذاكرتك. أشاركها كي أضفي الشفافية على عمق ضراوتي ووحشيتي. أشاركها لعلني أُخرِج إلى النور مشروعي اللانهائي للإرهاب والتعذيب. أنا مسؤول، يا «إيف»، كنت هذا الشرير. كنت جبانًا من الطراز الأول.

تغلبت على طفلة في نصف حجمي. ضربت فتاة صغيرة. استخدمت يديَّ، قبضتي، وأحزمتي كسياط. استجوبتك بلا رحمة. أطلقت عليكِ كل الألقاب البشعة. أهنت كل ذرة في كيانك وجسدك. كان قصدي الإذلال والإخماد. لم تعرف

تكتيكاتي أي حدود. ثم قمعتك وألغيتك بتهديدك إذا جرؤت على الصراخ أو التوسل أو البكاء. أنكرت عليكِ متنفَّسًا لكربك أو رعبك أو ألمك. شعرت بالرضا لأن هذا الألم المبرح سوف يتقيح ويقيم في داخلك. هكذا تركت بصمتي. كيف حفرت جحرًا بداخلك وتركت سمِّي؟

تتكرر الحوادث المرعبة مرة بعد مرة في حلقة عقابية لا تلين لمدة خمسة عشر عامًا هنا. أجزاء من الأحداث، والأشياء، والشظايا، ومضات مثل تلك الأفلام المبكرة، التي تنتقل سريعًا من مشهد إلى آخر.



صالة محل بيتزا. غير راقية. عشاء عائلي. لا «مارتيني». أشعر بالضيق. أنتِ متململة في مقعدك. تمدين يدك إلى الأشياء.

ـ اجلسي باعتدال، «إيفي». اجلسي بهدوء. أقول شيئًا. تعارضين فورًا. فتاة غبية.

ـ لا، أنا لست غبية. أنا على حق.

انفجار.

قبضة يد تهبط في وسط وجهك الغبي. ينفجر الدم من أنفك. بقع قرمزية على مفرش الطاولة ذي المربعات الحمراء والبيضاء. أنتِ متجمدة، تحدقين بازدراء. دماء تسيل على وجهك. العائلة مرعوبة.

- «كريس»، أخرجيها من هنا. نظفيها.

تحاول أمك بسرعة أن تجد لك طريقًا للخروج من المطعم. تتوقفين. تعرضين وجهك للمكان بأكمله. تحرجينني. تسببين الخزي للعائلة.

بالخارج أمسك ذراعك بقوة. أجرُّك عبر مرآب السيارات. أقذفك في السيارة. تتأوهين في المقعد الخلفي.

- أغلقي فمك، « إيف». أغلقي فمك القذر الغبي اللعين.

***

تهزني يد لأستيقظ من نوم عميق. أمك مرتبكة وفزعة.

- انهض، «آرثر»، انهض. «إيف» تدخن في فراشها.

أقتحم غرفتك.

أنتِ خارج النافذة على السطح شبه عارية مع سيجارة. عاهرة. فاسقة. أمسك بكِ. أسحبك بخشونة خلال النافذة. أضربك. أحطمك. أجرُّك إلى أسفل الدرج.

ألقي بكِ خارجًا. في الظلام، في البرد، بملابسك الداخلية. الآن ستعيشين كعاهرة على المرجة الأمامية ليراك العالم بأكمله. صفقت الباب، أغلقته. تركتك هناك.

***

- انزلي إلى هنا، «إيف». انزلي إلى هنا الآن. قفي هناك، قبالة الجدار. حين أتحدث إليكِ، انظري إليَّ. انظري إليَّ. أين ذهبت ليلة الخميس؟

أنتِ تُتمتمين بصوت غير مسموع.

-لا يمكنني سماعك، «إيف»، ارفعي صوتك. أين ذهبت؟ مع من كنت؟ مع من كنت، «إيف»؟ ألم تخبريني أنكِ ستظلين بالمدرسة بعد انتهاء الدراسة؟ ولم تفعلي. هل كذبت عليّ؟ هل كذبت؟ كذبت. كيف تجرُئين على الكذب عليّ؟ كاذبة قذرة!

يدان حول رأسك الكاذب. يدان تهشمان رأسك على الجدار المكسو بخشب جديد. تقرعان. تقرعان رأسك. كرة خرسانية. أريد أن أهشمها إلى أجزاء وأشاهد كل الأكاذيب الغبية تسقط منها. أقرعُ وأقرعُ. أهشّمُ الرأس.

- «كريس»، «كريس». هذه الطفلة فاسدة حتى النخاع. اذهبي، اذهبي وأحضري سكينًا من المطبخ.

أمك لا تتحرك.

- أحضري السكين اللعينة.

أمك تغادر الغرفة. لا تعود.

***

يدان حول عنقك تخنقانك. لا يمكنني التوقف. أخنق وأخنق. لا يمكنك التنفس. وجهك أحمر. تتهوّعين. أمك تصرخ:

- توقف، توقف، لا يمكنها التنفس.

أخنق أكثر. يزرقُّ لونك.

شيء ما بداخلي لا يريد التوقف. شيء ما بداخلي يريد

أن يخنق الحياة الغبية لأنزعها منكِ. أخنق وأخنق. لم تعودي تتنفسين. أمك تجذبني بعيدًا.

***

أمسك بكِ تتسللين وتهمسين في الهاتف. غير مسموح بأي مكالمات هاتفية.

ـ أغلقي الخط الآن، «إيف». اصعدي إلى هنا الآن.

أحضري حزامي، «كريس». أحضري حزامي.

تتردد.

ـ أحضريه الآن!

ألفُّ الطرف حول يدي. انحني فوق الفراش، يا «إيف». انحني الآن. أجلد ساقَيك جلدًا. يمكنني أن أرى الكدمات تتشكل الآن.

لن تعودي إلى المدرسة. لن تكوني إحدى عضوات فريق التشجيع. سنرسلك إلى مدرسة إصلاحية وستنامين في القبو من الآن فصاعدًا مع الكلب. أجرُّك إلى أسفل الدرج وأدفعك إلى داخل السرداب. في الصباح اختفيت. لم تعودي لأسابيع. لم أسمح لأمك أن تُجري اتصالات وتعثر عليكِ. لا نتصل بالمدرسة. لم نسأل في الأنحاء قَطُّ.

ذات يوم ظهرت فجأة. أمرت العائلة أن تتصرف كما لو كنت ميتة. غير مسموح لأحد بالاعتراف بكِ أو الحديث معكِ وإلا سيُعاقب. يُجنُّ جنونك. ترحلين مرة أخرى.

***

أترنح الآن وأنا أتخيل تسونامي الخوف الذي كنت تجابهينه بجسدك الصغير وكيانك منذ كنت في الخامسة. إلى أي مدى أرهق هذا الجهد اليومي الخارق عضلاتك ومزقها وفجر ألياف جهازك العصبي المنسوجة على نحوٍ هش؟ كان موتك العنيف ماثلًا دائمًا. وكل نوبة قاتلة تصعّد المخاطر والوحشية.

أتصور أن هذا الأمر هو كل ما أمكنك التفكير فيه. متى سأضرب مرة أخرى، كيف ستحمين نفسك؟ هل ستموتين؟ عشت في حالة مستمرة من القلق والرهبة، وفي النهاية أصبحت هذه المشاعر المكونات العصبية لشخصيتك. (أنا متأكد أنها كانت سبب شربك الخمر وتعاطيك المخدرات، في محاولة لتهدئة نفسك). هذا المستوى المرتفع من التوتر جعل التفكير أو الدراسة أو اللعب أو الحلم أو التعلم أو التركيز أو تذكُّر أي شيء أمورًا مستحيلة بالنسبة إليكِ. لم تتمكني من الاسترخاء. لم تنامي.

بعد ذلك كانت هناك عقوبات إرهابية مستمرة وأكثر منهجية. احتجت إلى أن أجد وسائل لإبقائك في موقف صعب على الدوام. تضمَّن هذا عبارات توبيخية غريبة ومبتكرة، وتدابير للإذلال، والوحشية، والألم. أحد هذه التدابير بارز على نحوٍ خاص. سأسميها جلسات مضرب كرة الطاولة. لديَّ سكرتيرتي، «أنيت»، تكتب بيانًا محاسبيًا

كل أسبوع على أوراق خاصة بمكتبي. من مكتب «آرثر س. إنسلر». قائمة بكل أمر سيِّئ فعلتِه، كل كذبة، كل تجاوز. أجمع تفاصيل من مصادر عديدة ومن مستطلعين متخفِّين في الأسرة. كل أسبوع أستدعيك إلى غرفة نومي. أجعلك تقرئين القائمة بصوت مرتفع. ثم أطلب منكِ إحصاء عدد أخطائك. أحيانًا تكون ستة. أحيانًا عشرة. لم تكن قَطُّ أقل من أربعة. أسألك إذا كان هناك أي شيء تريدين قوله لي. تُتمتمين:

- أنا آسفة.

- لا أستطيع سماعك، «إيف»، توقفي عن التمتمة.

وبعد ذلك تقولين بصوت عالٍ جدًّا:

- أنا آسفة.

ثم أسألك مرة أخرى، ثم تقولينها في النهاية بإخلاص، وطاعة، وأدب:

- أنا آسفة، يا أبي.

أقول:

- هذا أفضل. الآن اذهبي وأحضري مضرب كرة الطاولة.

تعرفين أين يُحتفظ به وتعرفين الغرض منه. لكل بندٍ في القائمة ستحصلين على ضربة قوية.

أقول لكِ:

ـ أنزلي بنطالك الجينز ولباسك الداخلي.

تفعلين بتردد.

ـ أسرعي. ليس لديَّ اليوم بأكمله.

أقول لكِ:

ـ تمددي على وجهك فوق الفراش.

تعرفين التمرين. تتمددين هناك. طرف مؤخرتك العارية الرقيقة مكشوف بضعف على فراشي. أنتِ في السادسة عشرة. أنتِ امرأة بالفعل. بوسعي أن أرى يديك تتشبثان بأغطية الفراش. لمضرب كرة الطاولة غلاف مطاطي أخضر مجعد وحين أصفعه بقوة كافية فإنه يترك انبعاجات. هذا هدفي. أن أنقش تصميم العقاب كالوشم كي لا تنسيه. أنتِ شجاعة عند ضربة المضرب الأولى لكن بعد ضربتين تحاولين حماية نفسك بيديك. أقول لكِ:

ـ أبعدي يديك.

تبدئين في البكاء.

- أرجوك يا أبي. توقف. لم أقصد ذلك. أرجوك، إنه يؤلم. سأحسن التصرف في المرة القادمة.

- أبعدي يديك. لا تبكي.

أصفع. أضرب. أصفع. أضرب حتى أكتفي. حين ينتهي الأمر تنهضين وترفعين لباسك الداخلي وسروالك. جسدك يرتجف. تبكين. بوسعي أن أرى أن المشي ليس سهلًا عليكِ. تعرجين خارجة. يستمر هذا أسبوعًا بعد أسبوع. هذا هو طقسنا. تُنزلين لباسك الداخلي، تنحنين على الفراش. أرفع مضربي.

ثم تغير موقفك ذات يوم. أتيت وقرأت القائمة بعزم. لم تتوقفي بل قلت بإخلاص مفرط تقريبًا:

- آنا آسفة، يا أبي.

تذهبين على الفور وتحضرين المضرب. تُنزلين بنطالك ولباسك الداخلي بثقة. لا تتشبثين بأغطية الفراش. لا تصرخين أو تتوسلين أو تبكين. أصفعك سبع مرات. حين ينتهي الأمر تنهضين. ترفعين بنطالك ولباسك الداخلي. تنظرين في عينيّ وتبتسمين أوسع ابتسامة.

- أشكرك يا أبي. منحني ذلك شعورًا رائعًا. لقد أحببته. أتطلع لفعله مرة أخرى.

وتقريبًا هرعت خارج الغرفة. فزت، يا «إيف». انتهت جلسات مضرب كرة الطاولة عند ذلك الحد. ربحت هذه المعركة، لكن بأي ثمن؟ من أصبحت وماذا أصبحت؟ ما الكيان الجديد الذي شيده حقدي؟

أين ذهب سخطك وألمك ومعاناتك؟ بدا أنكِ دفنتها تحت هذه الشخصية الجديدة المُقسّاة والمخدَّرة. لكن على نقيض «رجل الظل»، الذي سيفرض الانتقام والنقمة على العالم، ستجعلين الأمر بالكامل في غير صالحك في النهاية. هذا المخلوق شديد القابلية للاختراق، شديد الحساسية، لم يعد من الممكن الوصول إليه أو العثور عليه. لم يعد من الممكن لمسك. نوافذك مغلقة. بدأ الأمر تلك الليلة حين وجدك «رجل الظل» في غرفتك كأنكِ ميتة، لكن الأمر استنزف شخصيتك الآن.

وكان من الممكن بسهولة أن تصبحي شخصًا في غاية الخطورة. لكن بدلًا من ذلك، ربما بسبب كبَر قلبك أو مجرد كونك فتاة لا حول لها ولا قوة، بدأت السنوات التي رحت تدمرين نفسك فيها، بوعي أو من دون وعي. لم أعد مضطرًا لرفع يدي أو تعلية صوتي. كنت عنيفة مع نفسك بشكل أشد

من أسوأ تصوراتي. وهنا لا يمكن إلا أن يُقال، بيأس عميق، إنني، من خلال وحشيتي، حوَّلت هذه الفتاة الملائكية الحنون، التي ثمَّنت الحياة، إلى مراهقة انتحارية بجنون. شاهدتُك برعب واشمئزاز وندم وأنتِ تمضين في هياج طائش. دام الأمر أعوامًا. دخنت وشربت بلا انقطاع. كنت مخدَّرة أو منتشية طوال أغلب أيامك في الدراسة. أعتقد أنك كنت تسرقين. قضيت الوقت مع شخصيات شريرة ومدمنين ومروجي مخدرات ومجرمين. كنت تمارسين الجنس مع هؤلاء الفاجرين الذين كانوا غالبًا يبلغون ثلاثة أمثال عمرك. كانت مسألة وقت فحسب قبل أن تصبحي حبلى.

أصبحتِ «هيبيَّة» جامحة. توقفت عن ارتداء حمالة الصدر، نميت شعر الإبط، وأصبح مظهرك عارًا. كل شيء فعلته كان صفعة على وجهي. وعرفت أن العنف لم يعد رادعًا. حتى حين عاقبتك ورفضت السماح لكِ بالخروج من المنزل، تحديتني بالتسلل إلى الخارج في منتصف الليل. كنت متهورة في قيادة السيارة. كنت على استعداد للارتطام، للقبض عليكِ، لاعتقالك، لاندثارك. أكدت درجاتك وأداؤك في المدرسة أنكِ لن تلتحقي بالجامعة ولن يكون لديكِ أي مستقبل. توقفت عن تناول الطعام وكنت نحيفة على نحوٍ مخيف. كنت مفرطة الحركة ولم تتوقفي عن تحريك ساقك. كنت قليلة الاحتمال وسيِّئة الطبع. لم يكن

هناك شيء يمكنه أن يجعلك تتراجعين.

في الثامنة عشرة من عمرك كنت تدورين بجنون في مسار لولبي منحدر، في طريقك إلى مأساة لا يمكن تداركها أو موت محتمل. ألقيت باللائمة لذلك على عنادك وشرِّك. لم أحاول قَطُّ للحظة واحدة أن أمنعك من السقوط.

ما هذا الإحساس الذي ينخر ويشتعل في صدري؟ آه يا «إيف»، آه يا «إيف»، هل هذا قلبك بداخلي؟ هل أشعر بما كنت تشعرين به حينذاك؟ هذا كثير للغاية. آه أيها القلق. آه أيتها الوحدة. آه أيها اليأس. اليأس.

عذاب استحالة الحياة، كراهية نفسك، السخط الخانق عليّ، على أمك، على عائلتك، على العالم متحجر القلب الذي أتى بكِ إلى هنا. فزع يسبب الشلل. لا مكان للجوء إليه. لا أحد يفهم. قفص خانق من العجز ينغلق. دعني *أخرج*. دعني *أخرج من هنا*. *أخرجني من هنا*. كيف تنفستِ يا «إيف»؟ كيف نجوتِ؟

ماذا يحدث؟ العدم المضجر لـ«الليمبو» يزداد عتمة، يزداد ظلمة، ليل هابط. لكنه ليس ليلًا تمامًا، أشبه بهاوية مُهلكة. لا بد أنني أتهاوى في الجحيم. جرح شيطاني مسوَد مثل كهف. تقلصات العار تُقطِّعني. أموت ألف ميتة لكن لا موت يسمح لي بأن أموت. صدمة داخل صدمة. سلسلة

مشتعلة من الجثث والخداع. كل ميتة تربطني إلى تاريخ من الميتات، تلك الميتات التي لي والتي ليست لي. تكشفت وجوه القسوة. يا إلهي، هذه سلالتي. هذه هي التربة المسمومة التي نشأت منها. أبي، «هايمان»، هنا، وأبوه وجده وهلم جرًّا. آباء جلبوا دمارهم الذي لا يرحم على العالم.

سلسلة من الجنرالات والغزاة والرؤساء التنفيذيين والمحتالين واللصوص والمستغلين من كل نوع والحمقى. يموتون ويموتون هنا مرة أخرى إلى الأبد. هؤلاء آبائي. هؤلاء هم الرجال. الولاء أهم شيء لدينا. الطاعة ترجح على المنطق أو الأخلاق أو الحس. لقد استدعوني هنا. يحرضونني على قطع تلك الحماقة معك واستعادة مكاني في التسلسل الهرمي الذكوري الصالح. كم هو أمر سخيف تمامًا. أن يتحكموا بي مرارًا وتكرارًا مثل آلة مبرمَجة إلى الأبد لإثبات قوتي وجدارتي.

أنا أسألك يا «إيف»، ما البديل إذن؟ ماذا يكون رجل مطرود من ملكوت الرجال؟ ربما لا يمكنك فهم هذا الولاء. إنه ما يمنحنا غاية ومعنى ومكانًا. أي أرض سنسير عليها بعد المنفى؟ عصى آدم مرة واحدة ونعرف ما الذي جلبه علينا ذلك.

بوسعي التوقف هنا. لقد حسنت اعترافاتي بالفعل من مزاجي المتأثر بالكارما. مملكة الجحيم المظلمة هذه

بالتأكيد أكثر قابلية للاحتمال من «الليمبو» السابق. على الأقل هناك الإحساس بالألم المستمر وحركة الموت المتكرر. وعلى نقيض «الليمبو»، لست وحيدًا هنا في غرفة الآباء المظلمة هذه.

وأنا متأكد، يا «إيف»، أن هذا ما أستحقه.

لكنني أراوغ في التمرين. دعوتني إلى هنا لأقدم اعتذارًا. وعدت بإجراء أشمل محاسبة أستطيع إجراءها. لم أقل إنني سأتوقف إذا هبطت في موضع أكثر قابلية للاحتمال. أنا أفعل ما فعلته حين كنت حيًا. أساوم، أتلاعب، الحفاظ على مصالحي فوق كل شيء آخر. تموت العادات موتًا بطيئًا.

هذا الاعتذار مهمة شاقة ومتشككة بشكل أكثر مما تصورت بكثير. كلما اقترب المرء منه، أصبح بعيدًا عنه. كل اعتراف يتطلب محاسبة أعمق، كل حساب له حساب آخر متضمن في داخله. إنه بكل تأكيد صندوق «باندورا»، لكن هذه شرور أُطلقت على العالم بالفعل. إنها مُعلقة هناك غير مفسَّرة مثل غيوم مشؤومة وسامَّة في النفسية الجماعية. يصبح من الواضح أكثر فأكثر أن القصة غير المرئية، أو المحكية أو الممتلَكة هي التي تحوز القدر الأكبر من القوة.

يتحدى كل اعتراف هنا عهد الدم الذي صُمم قبل ولادتي بوقت طويل. المعتذر خائن من الدرجة الأولى. كم عدد

الرجال، كم عدد الآباء الذين اعترفوا بالإخفاقات أو الإساءات؟ الفعل في حد ذاته خيانة للقانون الأساسي. إنه ينثر شظايا الذنب في كل الاتجاهات. إذا كان أحدنا مخطئًا، ينهار الهيكل والقصة بأكملها. صمتنا هو ميثاقنا. قوة عدم الحكي، عدم الإفصاح، هي أقدم وأقوى سلاح في ترسانتنا. لكن هناك تقنيات أخرى متوفرة في دليل التدريب الأساسي الخاص بنا. تقنيات أشد فعالية وأطول أمدًا في بعض النواحي من أي ضرر جسدي.

تقنيات استخدمتها لأجعلك تشكّين في خبرتك، وتصوراتك، وجدارتك. كم مرة أقنعتك، بأعظم قدر من القسوة والانتهاك، أن ما كنت تعانينه لم يكن بهذا السوء؟ أن ردود أفعالك كانت مبالغًا فيها ومتطرفة؟ كم مرة أصررت أن ما تعانينه كألم لم يكن ألمًا على الإطلاق؟ كم مرة لمتك على ما كنت أفعله؟ أو أخبرتك أنني أحبك كثيرًا إلى درجة أنني كنت أقذفك على الجدار؟ أفعل هذا لمصلحتك؟ كم عدد الطرق التي أربكتُكِ وأرهقتُكِ بها عن قصد؟ كم عدد القضايا التي بنيتها ضدك وكم عدد الشهود والحلفاء الذين حشدتهم لدعم قضيتي؟

تلاعبٌ نفسيٌ بشكل يومي. حتى حلّت النهاية المريرة، تركتك مع تلك الشكوك العالقة، التي ستوقظك لاهثة الأنفاس في الليل. هل تخيلت كل شيء؟ هل كان الأمر

فظيعًا كما تتذكرينه؟ لماذا لا يبدو أن الآخرين منزعجون؟ لماذا لم يقولوا أي شيء؟ هل هناك خطب بكِ؟ لماذا لا تمضين قدمًا فحسب؟ لماذا تلفتين الانتباه إليكِ؟ لماذا تهوِّلين الأمر؟ إنها الطريقة التي سارت بها الأمور فحسب. لماذا تثيرين الأعصاب، تزعجين العش؟ لقد كان أباك. لقد فعل أفضل ما بوسعه. كانت هذه عائلتك. كنت دائمًا صعبة المراس. لماذا لم يمكنك الاندماج فحسب؟ دائمًا يجب أن تكوني عظيمة جدًّا. مميَّزة جدًّا. إذن، أقحم أصابعه الكبيرة بداخلك حين كنت في الخامسة؟ إذن، طلب من أمك إحضار سكين من المطبخ حتى يتمكن من طعنك؟ إذن، جعلك تنزفين وتختنقين؟ إذن، ألقى بكِ إلى أسفل الدرج؟ لقد نجوتِ. هناك أمور أسوأ من ذلك بكثير. تلاءمي مع الأمر.

أعرف كل هذا لأن هذه هي الأسئلة والشكوك الذاتية التي استنزفتك. لقد ورَّثتها لكِ. هذه هي الشكوك التي جعلتني راغبًا في الامتثال لجيش الآباء ومواكبته.

لكن حتى في سن مبكرة، خرجتِ عن الصف ورفضتِ المسير. على الرغم من انكسارك، وارتباكك، واختلاط الأمر عليكِ، تشككتِ وتصديتِ بطريقة أو بأخرى. وأنا أرى الآن، لم يكن الأمر في البداية مجرد غضب عارم شعرتُ به نحو مواجهتك. لا، كانت مهابة. كانت دهشة. كيف أمكنك، فتاة في العاشرة من عمرك، أن تكوني صفيقة بما يكفي لتتحدي

الثوابت؟ كيف أمكنك، مجرد طفلة، الوقوف منفردة خارج الدائرة؟ أي روح عاشت بداخلك، أي عزيمة، أي بسالة؟ لكن الإعجاب كان شيئًا لم أتمكن من الالتزام به في قاموس عواطفي المحدود وسرعان ما تحول إلى ضغينة وغيرة. أجل، يا «إيف»، شعرت بالغيرة منكِ. حسدتك على جسارتك. لم يمكنني تحمُّل قوة التمرد التي لا يمكن انتهاكها، التي جعلتك منفصلة ومتفوقة. لقد أظهرتْ كل الطرق التي خنث بها نفسي بالاصطفاف مع السلطة. لقد جعلتْ انصياعي الإرادي الضعيف وخضوعي ظاهرَين بشكل لا يمكن الرجعة فيه.

لكن الأمر الأكثر إهانة، أنكِ جرؤت على معارضة أبيك بصراحة. لقد تصرفتِ بجرأة وقوة كما لو كنتِ ندًّا. لقد تحديت سيادتي بوقاحة. أنتِ، أيتها الشقية الجاحدة، قد جرؤت على الاعتقاد أنكِ ربما تقدرين على أن تكوني أفضل. ولقد أضعفتِ سلطتي في حضور مملكتي الخاصة، التي كانت عائلتي. لقد أسأتِ إليّ، يا «إيف». ولن يكون هناك غفران.

أثار هذا رياح النقمة الحرون التي قادتني واستحوذت عليّ إلى يوم مماتي وحتى الحياة الآخرة.

نقمة مدفوعة بالكبرياء والعظَمة. نقمة على نفسي لخيانة ضميري. نقمة على ملل الحياة المنزلية السقيم،

على الأطفال المزعجين الذين لم يكونوا عند حسن الظن قَطُّ، على أنني أتحول إلى آلة وإلى أحمق شركات لا يهتم إلا بترقيته. نقمة مدفوعة بقمع الذنب المثير للغثيان لأنني لامستك على نحو فاحش حين كنت في الخامسة، ومدفوعة بالرعب من أن يُكتشف ذلك.

نقمة على كل الناس المثيرين للشفقة في العالم الذين أهدروا وقتي ولم يفعلوا شيئًا إلا شغل المكان.

نقمة هدمَت أبنية وأحلامًا وشخصيات، ودمرَت بشكل أعمى ومتعمد كل شيء في مسارها. نقمة نفَت حكمتي وذكائي. دنَّسَت سحري. لم أعد رجلًا. كنت إعصارًا.

ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض؟ لماذا حُمُوُّ هذا الغضب العظيم؟ فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم حين أخرجهم من أرض مصر، وذهبوا وعبدوا آلهة أخرى وسجدوا لها. آلهة لم يعرفوها ولا قسمت لهم. فاشتعل غضب الرب على تلك الأرض حتى جلب عليها كل اللعنات المكتوبة في هذا السفر. واستأصلهم الرب من أرضهم بغضب وسخط وغيظ عظيم وألقاهم إلى أرض أخرى كما في هذا اليوم(2).

لقد لعنتُك، يا «إيف»، وطردتك من أرضي. خربتك بغدر وتجاهلتك. استهنت بطموحاتك ومحوت إمكانياتك. ولم

يكن هناك شيء، ما من شيء أمكنك فعله لاستعادتي.

لم يستعطفني أي استرحام من أمك. لم يهم إلى أي مدى سقطتِ، إلى أي مدى اقتربتِ من الخراب أو الفقر أو الموت. لم يهم إلى أي مدى تعطشتِ إلى اعترافي ودعمي. ألغيتك بكل المقاييس. وحتى هذا اليوم، لا أعرف كيف فعلتِ ذلك، لكن بعد عام في كلية ما للبنات من الدرجة الثالثة، قلبتِ حياتك الأكاديمية وتمكنت من التحويل إلى كلية مرموقة. ربما كان الأمر ابتعادك عني أخيرًا. ربما كان الدافع المحموم لإثبات أنني مخطئ.

حين عدتِ إلى البيت في عطلة، كنت ممتلئة بجرأة وتوهج جديدين. كنت تكتشفين اهتماماتك ومواهبك. صرحت على العشاء أنك ستصبحين فنانة، كاتبة. لن تدرسي العلوم أو الرياضيات، كما نصحتك بشدة. كنت ستدرسين الفلسفة والأدب. أحنقني غرورك ويقينك. (أرى الآن، مجددًا، أنها كانت غيرة). من كنت في التاسعة عشرة لتعتقدي أن لديك أي فكرة عما تريدين وعما تحتاجين إلى دراسته؟ سألتك كيف تظنين أنك ستكسبين رزقك بكتابة «القصائد». قلتِ إنكِ ستجدين حلًا. قلتُ إنكِ ستحضرين صفوفًا لإعدادك لتكوني محامية أو محاسبة. قلتِ إنكِ لن تفعلي. قلتُ إذا كنتُ أدفع مقابل ذلك، ستحضرين صفوفًا تُعدك لمستقبل واقعي.

- كلَّا، لن أحضر هذه الصفوف. أنا أحصل على درجات ممتازة الآن. سأحصل على منحة دراسية. يمكنك الاحتفاظ بأموالك.

انفجار! سحبت المقعد من تحتكِ ورفعته لأحطمه على رأسك. ولصدمتي، اندفعتِ نحوي، دفعتِني إلى الخلف حتى كدت أسقط. رفعتِ قبضتيك.

- ليس عليك أن تدعم دروسي أو أحلامي، لكن إذا لمستني مرة أخرى، فسأغادر هذا المنزل إلى الأبد. أعدك.

يا إلهي، كنتِ على استعداد للموت في سبيل ذلك؟ ترفعين قبضتيك وتضربينني؟ كنت مذهولًا ومنبهرًا. أصبحتِ خصمًا قادرًا على الحياة. عرفتُ حينها أنني يجب أن أطور استراتيجيات أكثر فاعلية وقسوة لنزع الشرعية عن هذا الوهم وأطيح بكِ. بدأت المعركة.

قُبلتِ مبكرًا في أفضل مدرسة دراما للخريجين في البلاد، واحد من ستة أماكن في الصف. عدتِ إلى المنزل في زيارة نادرة لمشاركة حماسك واستمالة دعمي. قدمتِ الحجج التي تدعم موقفك. ستتخرجين في الكلية في غضون أشهر قليلة. كنت واضحة في أنكِ تريدين الاتجاه للمسرح. سيوفر برنامج الدراسات العليا أفضل تدريب ويقدم شبكة علاقات مفيدة في المجال. لقد كان قبولك أمرًا عظيمًا. ومرة أخرى،

المبالغة:

- أبي، إن هذا كل شيء!

وبالنظر إلى الوراء، يا «إيف»، ربما كان كذلك.

- أخبرتك منذ أعوام، إذا أردت أن تسلكي هذا الطريق فسوف تسلكينه بنفسك من دون اعتماد على أحد.

- لكن لا يمكنني الحصول على منحة إذا كان لديك مال.

- تلك مشكلتك، يا «إيف». لقد اخترتِ. الأمر يرجع إليكِ لتجدي حلًّا.

هناك أحبطتُ حلمك الأحمق. أو على الأقل هذا ما تمنيته واعتقدته. كنتِ، على نحوٍ ما، المتحدث الرئيسي في حفل تخرج كليتك. بينما جلسنا وسط حشد من الآلاف، سمعت أناسًا خلفنا يهمسون.

- أسمعُ أن هناك هذه النسوية الراديكالية تتوجه إلينا بالحديث.

أدركت فجأة أنهم يتحدثون عنكِ، ابنتي، وفي تلك اللحظة، أصبحتِ غريبة فجأة. لم أعرفك. لقد رحلتِ بعيدًا عني إلى الكلية، لقد ميزتِ نفسك وصنعتِ حياة. وبقدر ما

أردتُ أن أكون فخورًا، لم أتمكن من تحمُّل أنكِ جرؤت على أن تكوني منفصلة. من كنت كي تنطلقي وترسمي مسارًا، وتحددي وجودك بنفسك؟ من كنت كي تعتقدي أن كلماتك وآراءك كانت مهمة بما يكفي لجذب انتباه هذه القاعة؟ والأكثر إثارة للقلق، إذا كانوا سيستمعون إليكِ، ألن يستمع إليكِ آخرون؟ جلستُ أثناء خطابك، لكن لأكون صادقًا لم أسمع كلمة واحدة مما كنت تقولين. هناك كنت في الثانية والعشرين من عمرك واقفة أمام الآلاف، ممتلئة بحضور الشخصية والقوة. ابتهج الجمهور. تلقيتِ حفاوة بالغة. وأنا مشمئز تمامًا من الاعتراف أن الأمر أثار غيظي وأخرجني عن توازني. كنت أنا الذي يُفترض أن يحظى بهذا الاهتمام. أنا الذي أستحق أن أستحوذ على مثل هذا الإعجاب والسلطة.

ثم، بعد خطابك، حدث شيء لن أنساه أبدًا. لقد أعدتُ صياغته هنا في «الليمبو» أكثر من مليون مرة. كنت قلقًا ومضطربًا، لذا خرجت بعد خطابك كي أدخن سيجارة. كان يومًا قائظًا في مايو. كان الهواء كثيفًا. خرجتِ في اللحظة نفسها تمامًا. أشعلتُ سيجارتكِ الـ«لاكي سترايك». أشعلتُ سيجارتي. ما زالت يداك ترتعشان. وقفنا هناك في صمت، نحن الاثنان فحسب، بينما الاحتفال لا يزال مستمرًا. كان الأمر كما لو أن العالم تآمر ليجمعنا في هذه اللحظة المعلَّقة. لحظة مثالية بالنسبة إليَّ للثناء عليك، للاعتراف بإنجازك

المذهل. وعرفت، حق المعرفة، أنكِ، إلى درجة كبيرة، قد فعلت هذا من أجلي، لتحصلي على استحساني واعترافي بكِ. لتريني أنكِ قد كنت عند حسن الظن، أنكِ في الحقيقة لم تكوني كسولة وغبية. وإذا كان بوسعي استعادة تلك اللحظة الآن، لفعلتُ. لأنني أعلم أن سلوكي كان مدمّرًا.

وقفت هناك، رصينًا، باردًا، ناظرًا إلى البعيد، غير مكترث تمامًا وصامتًا كما لو أن شيئًا لم يحدث للتوّ، كما لو أنه ربما فاتني.

وبإمكاني أن أشعر بكِ، يا «إيف». سيكون من الكذب أن أقول إنني لم أفعل. عرفت ما احتجتِ إليه مني وعرفت حتى في ذلك الحين أنه سيُحدث فرقًا كبيرًا بالنسبة إليكِ في تلك اللحظة المجيدة وفي الأعوام التي تلتها. كانت لتصبح نقطة تَحول حين قدرتِ أخيرًا على أن تتحدي ذاتك، وأن تتولي مسؤولية مصيرك.

كان الأمر متوقفًا ببساطة على رغبتي المتواضعة في تقديرك والاحتفاء بكِ.

لكنني لم أستطِع، لن أمنحك ذلك. لن أساعدك في طريقك. احتجت إلى أن أظل مُنشبًا مخالبي فيكِ. احتجت إلى أن أهيمن وأعاقب. لذا لم أقل شيئًا على الإطلاق. لا شيء. ولا كلمة واحدة. كان الصمت صادمًا. لقد قطعتُ بالفعل طريقًا

رئيسيًا واحدًا لمستقبلك برفضي منحك بنسًا واحدًا لكلية الدراسات العليا. هناك وبعد ذلك أبطلتْ أداءك الخطابي بحجب استحساني. لكن الخاتمة كانت إبليسية. بينما وقفنا هناك في ذلك الحمام البخاري الغارق في الخرس العقابي، مددتُ يدي ببطء في جيبي. ناولتك مظروفًا بداخله شيك. ألف دولار. ناولتك إياه، صافحتك كما لو كنتِ عميلًا ما من عملاء الشركة وكان هذا إتمامًا لصفقة تجارية. نظرتُ في عينيك نظرة خالية من التعبير من دون أي أثر للمودة أو الاهتمام. قلت:

ـ أتمنى لكِ حياة طيبة، يا «إيف».

نهاية القصة.

تم الوفاء بالتزاماتي. تريدين أن تكوني ذات شأن على المسرح، حسنًا، الآن أنتِ بمفردك من دون أي مساعدة. كانت هذه لكمة قوية لمستقبلك. انثنت ركبتاك. حبست دموعك. استدرت من دون أن تقولي كلمة واحدة ومشيت مبتعدة. كي أكون صادقًا، لم تنظري إلى الوراء قَطُّ. بدلًا من إنهاء الحرب، ألقيتُ صاروخًا من مسافة قريبة وساويتك بالأرض.

ثملتِ جدًّا تلك الليلة. كنتِ في حالة فوضى ومصدر إحراج على الملأ. قالت أمك إنكِ في يوم كان يجب أن ترقصي فيه على السحاب، أجهشت بالبكاء حتى نمت.

ستحطم هذه اللحظة ثقتك إلى الأبد. كل انتصار بعد ذلك سوف يُصقل بالرفض. لن يكون أي إنجاز حقيقيًا أو كافيًا أبدًا، كل إنجاز محفوف إلى الأبد بإحساس رهيب بالخيانة وخيبة الأمل. أعرف، لأنني أطلقت تلك القنبلة بذلك الهدف وتلك النية تحديدًا. فعلت ذلك، يا «إيف». أردتك أن تفشلي. أردتك أن تسقطي. لم أكن أريدك أن تنجحي في أي شيء.

لم تتمكن أمك من فهم هذا. لماذا، سوف تسأل، هل ستنفق كل هذا المال على تعليم «إيف» الجامعي وبعد ذلك تنتقص من قدرها باستمرار؟ هذا غير منطقي. لكن كان هناك منطق شيطاني. كلما كنتِ أكثر استقلالًا، أكثر نجاحًا، قلَّت سيطرتي عليكِ. ستصبحين شخصًا مستقلًا إذن، بأفكارك الخاصة ونسختك المميزة عن الواقع. كلما أصبحتِ أكثر مصداقية واحترامًا، زاد احتمال أنكِ ستكونين شاهدًا جديرًا بالثقة.

عرفتُ بحلول ذلك الوقت أن تلك الغزوات الكابوسية في الظلام قد أتلفتك ودمرتك، وعرفتُ أنكِ كنت متحدية ومتمردة. كانت مجرد مسألة وقت قبل أن تحصلي على انتقامك. أو هكذا تصور دماغي المصاب بجنون الارتياب. احتجتُ إلى أن أعطلك.

من الذي كنت أعاقبه، يا «إيف»؟ من الذي كنت أحاول أن أدمره؟

طوال الوقت، جعلتك تشعرين أنكِ الشخص الذي قد ارتكب خطأ فادحًا. قلقة دائمًا، في حالة مستمرة لا يمكن وصفها من الذنب والرهبة، جعلتك حاملة لخطيئة أبيك. حملتِها مثل مُحارب. حملتِها مثل جرح. حملتِها مثل خلية متحورة أصبحت مرضًا فيما بعد. حملتِها مثل حرف قرمزي مدموغ على جسدك المدنَّس، مثل علامة على أنه من الممكن التخلص منكِ ونسيانك. حملتِها مثل دعوة إلى الضواري المنتظِرة لإلحاق المزيد من الأذى. حملتِها مثل نذير شؤم أنكِ لن تعيشي لتبلغي الثلاثين. تقريبًا أفرطتِ في الشرب حتى الموت، تعرضين نفسك لخطر دائم، تحلمين سرًّا أن أحدهم سيأتي ليخرجك، ليوقف الألم، ويفك اللعنة. وأنا شاهدتُ وتركتُ الأمر يحدث.

بعد الجامعة، لم يكن هناك هيكل ليدعمك. سقطتِ من تلك المرتفعات المُسكِرة. لن تلقِي الخُطب بعد الآن. فقدتِ صوتك وغايتك وطريقك. لم أتقدم لمساعدتك ومنعت أمك أن تفعل. زرناك مرة واحدة في شقة بائسة في نيويورك، والأمر الإيجابي الوحيد الذي لاحظته أنها خالية من الفئران. حين ناشدتني أمك لأمد لكِ يد المساعدة، وجهت لها السباب وقلت إن عليكِ أن تتدبري أمرك بنفسك. أصررت على أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي يجد الأطفال بها طريقهم في العالم.

لم أقدم لكِ بنسًا في أشد محنك الاقتصادية. حين اتصلتِ في الرابعة صباحًا في حالة سُكر انتحارية، أجبرت أمك على غلق الخط ولم أسمح لها بالاتصال لترى ما إذا كنت على قيد الحياة في اليوم التالي. ولفترة، اختفيتِ في المدينة، ابتلعكِ السقوط في ليالي الفجور والخطر واليأس. سمعنا شائعات عن أنك كنت تعملين نادلة في حانة للمافيا، دائمًا ثملة، تائهة في الشوارع، لا تستيقظين قَطُّ قبل الواحدة بعد الظهر. قيل لي إنكِ كنت تواعدين قاتلًا مأجورًا.

هل كنت آمل أنكِ ببساطة ستختفين أو تموتين؟ بالتأكيد تصرفتُ على هذا النحو. أسمعك تصرخين. *أي نوع من الآباء كان بإمكانه أن يسمح لابنته بالتردّي إلى هذا؟ أي نوع من النقمة، من الحنق، بإمكانه أن يستمر كل هذا الوقت الطويل؟ لا بد أن هناك المزيد في هذه القصة. ما الذي ستحصل عليه من هذا؟*

إليكِ الحقيقة المروعة، يا «إيف». شعرت بالمتعة لمشاهدتك تتذللين من دون مال أو احترام أو مستقبل. تسليت برؤيتك تسقطين من مثل تلك المرتفعات العنيدة لمطاردة مستقبل غير عملي ومهووس بالعظَمة كنتِ قد صممتِه على نحو مستقل. ما هو العمل الذي كنت تتخيلين أنه بوسعك أن تكوني به، كاتبة أو فنانة، في حين أنني قد قضيت أفضل أعوامي كموظف مبيعات راقٍ في شركة

آيس كريم كي أدفع فواتيرك؟ لا توراة، لا أفلاطون، لا شيء أعرضه من أجل أحلامي.

وهذا، كما أخشى، سيوجه دفة الحديث إلى أمر أكثر إزعاجًا وتعقيدًا. لقد أصبحت شخصًا يستمد السعادة من معاناتك. الأمير الوسيم تردَّى إلى «الماركيز دو ساد».

أثناء سقوطك يا «إيف»، شعرت بشعور أفضل تجاه نفسي. ما عدت تشكلين تهديدًا لغروري أو قيمتي. لقد خنتني وعصيتني. لقد نبذتني، وأنا متشبع بالرضا بينما يقدم العالم عقابك، بالتناغم مع تقييمي للأمر.

وجدت متعة بالغة بمعرفة أنكِ لا شيء من دوني أو من دون مباركتي. شعرت بسرور عميق بإثبات أنه لم يعد باستطاعتك أن تستعطفيني. فما السادية سوى حنان مُهان؟

ألم يكن هذا إرثي العاطفي بالنسبة إليكِ، استباحة ثقتك؟ تشويه غريزتك الرئيسية لتكوني طيبة؟ نقل هذه المتعة السادية وهذه الدوافع القاسية إلى خلقة طبيعتك نفسها؟ كثيرًا ما سألت نفسي لماذا لم تنجبي أطفالًا قَطُّ. هل خشيت هذه البواعث نفسها في داخلك؟ إغاظة تستمر لفترة طويلة للغاية، راحة داخلية حين يسقطون أو يفشلون، صفعة أو دفعة فجائية لا يمكن تفسيرها، طفل يسقط عن غير قصد إلى أسفل الدرج.

بعد أعوام، جئتِ أخيرًا للزيارة، وكنت مقلعة عن شرب الخمر حديثًا. كنت متورمة، وقلقة، وهشة للغاية. لقد وجدتِ «جماعة من الناس» وكانوا يساعدونك. تحدثتِ بعبارات مبتذلة سخيفة وبديهيات وهراء مستفيض عن «قوة أعلى». كنا عائلة غير متدينة ووجدتُ أن هذا الافتراق مزعج بشكل خاص. لقد أبغضتُ الطوائف الدينية وسائر الدعامات. ازدريتُ الجماعات من أي نوع. لكن بوسعي الشعور بعزم جديد في داخلك. لقد وجدتِ طوقًا للنجاة وكنت متشبثة به من أجل الحياة الغالية.

وبدلًا من الاحتفاء بهذه العزيمة الجديدة، سخرتُ من إقلاعك عن شرب الخمر، رفضت تصديق أنكِ كنت مدمنة على الكحول أو الاعتراف بذلك، انتقصتُ من هؤلاء الفاشلين المثيرين للشفقة الذين دعوتِهم الآن بـ«الأصدقاء». وبعد ذلك، للبرهنة على تعطفي واستنكاري، مزجت كأس «مارتيني» وناولته لكِ. كنت مصدومة بوضوح لكنكِ رفضت بهدوء. ضحكت منكِ وأغريتك أكثر، وحين تمسكتِ بموقفك، قلتُ كم كان من المحزن أن حياتكِ، في مثل هذا العمر المبكر، قد وصلتْ إلى هذا الحد.

لكن شيئًا قد تغير فيكِ. لم تُبدِي أي رد فعل أو حتى تحاولي الدفاع عن نفسك. ارتشفتِ المشروب الغازي «تاب» وظللتِ تدخنين وتدخنين. هزني هذا واستفزني

أكثر. أفلتُّ من قبضتي. لم تلتقطي الطعم. كنتِ الآن مع جماعة لها تأثير أكبر ومن الواضح أنهم سلحوك بتكتيكات لمقاومتي. كنت محنقًا. سألتكِ ماذا تفعلين بحياتك. أخذت أستجوبك بقوة وحدة. أخبرتك أنني أنفقت ثروة على تعليمك الجامعي ولم تفلحي في شيء. كنت نادلة من دون رؤية أو خطة. كم أصبحت فاشلة. لم تتفوهي بكلمة. قلتِ إنك بحاجة إلى إجراء مكالمة وغادرتِ الغرفة. حين عدتِ، كانت حقيبتك مُعدة. قلتِ إن هذا الوسط المحيط قد أصبح مهدّدًا لإقلاعك عن الإدمان، وإن ذلك كانت له الأولوية بالنسبة إليكِ. ثم رحلتِ. حدث كل شيء بسرعة فائقة. قطعتِ الحبل الذي كان يخنقك وخرجتِ من الباب. وهذا القطع أدى بي إلى الدوار. كنتُ مشدوهًا ومجنونًا. من كنتِ لتخرجي من منزلي، لتزعمي أولوية وأسلوب حياة خارج نطاقي؟ من أنتِ لتأخذي زمام حياتك بين يديك؟ أعرف أن هذا سيبدو غريبًا تمامًا بالنظر إلى الماضي، لكن حتى في وسط هذا الوقت اللانهائي من النقمة، ما زلت تنتمين إليَّ على نحو ما، ما دمت عاجزة وثملة، فسأمتلكك. ما دمت في حالة فوضى، فستحتاجين إلى مباركتي وتأييدي.

أصبحتُ متقززًا من هذه الاعترافات المروعة ومن نفسي. أُصدر حشرجة وشخيرًا من دون انقطاع. عالق مثل خنزير دهني يدور في بصاق معذَّب من تمحور متعفن حول الذات. يا إلهي، دعني أخرج منّي. اكسر هذه القشرة المستحيلة.

حررني من هذا العالم السفلي ذي المرايا اللانهائية. هل اقتربت حتى من طبقة الصدق والاعتراف التي من شأنها أن تحررك؟ لأنه يبدو لي أن الاعتذار يصر على أكثر العلاقات الحميمية بدائية. وإذا كان الاعتراف هو طلب للمغفرة، فلا بد من تعرية المعترِف وكشفه.

أرى الآن أن هذا التمرين ليس مجرد تمرير لمشاعر الندم. لا، الكامن في الاعتذار هو إعادة تَصور للبُنى الأساسية لعملية تعلُّمنا. وأشعر أنني أفشل. حتى الآن، أتساءل إذا كانت جدران استبدادي تسمح لي برؤيتك أو الشعور بكِ حقًّا. هل توقفت حتى لأفكر أو أستشعر أي نوع من التمزقات والمعاناة تسببها هذه الاعترافات الوحشية في داخلك؟ هل ارتحتِ، أم صُدمتِ؟ هل اشتعلتِ غضبًا؟ هل أنتِ مؤرَّقة ومكلومة؟ هل أنتِ مُبرأة ومتحمسة أخيرًا؟

وكيف لي أن أعرف هذا؟ هل أنتِ موجودة حتى وراء بوابات ذاتي؟ هل أنتِ تلفيق، إسقاط، امتداد؟ هل أنتِ هدف أم تهديد أم بغض خالد؟ يا إلهي، «إيف»، أخجل أن أقول إنني لا أعرفك. حسنًا، أعرف أنكِ تحبين الفطر المتبل وسمك الرنجة ومخلل الخيار بنكهة الشبت، لكن فقط لأنني أحبها. لكن ليس لديَّ أي فكرة عن الكتب التي تقرئينها، القصائد التي كانت ترشدك خلال الحياة. هل قرأتِ «نيتشه»؟ «إمِرسون»؟ «بودلير»؟ ما نوع الأصدقاء الذين

انجذبتِ إليهم؟ ما كان شكل الحياة في المسرح؟ هل أدّيتِ على المسرح قَطُّ؟ هل أنتِ مثلية حقًّا؟ هل طورتِ شهيتك قَطُّ؟ هل تحبين المحيط، أم تفضلين الغابات والجبال؟ لماذا حقًّا أصبحتِ نباتية؟ ما هو أشجع شيء فعلتِه؟ هل أنتِ مرحة؟ هل انتقلتِ إلى المدينة بسببي؟ هل كان عليَّ أن أربيكِ على أنكِ يهودية؟ هل تحبين الصباح؟ هل تفضلين الورد على زهور «الفاونيا»؟ هل لديكِ قطط؟ هل تصلين أو تؤمنين بالرب؟ هل تشربين القهوة أم الشاي؟ كيف سارت الأمور مع ابنكِ بالتَّبني؟ هل كسبتِ مالًا قَطُّ؟

من أنتِ، يا «إيف»؟ فاتني كل شيء. افتقدتُكِ.

أفتقدُكِ.

رفضتُ أن أعرفكِ أو أراكِ. وكان هذا ـ من بعض الجوانب ـ الحرمان الأشد تدميرًا وعقابًا. أليس ذلك كل ما يتوق إليه أيٌّ منا، حقًّا؟ أن يُعرف؟ أن يُعطى شكلًا وهيئة عن طريق الاعتراف والاعتزاز؟ وإلا كيف يمكننا أن نثق حتى بأننا هنا؟ وربما لهذا السبب أصبحتُ شديد التطرف. لأنني كنتُ غير مرئي لنفسي، لأنني مُحيث، احتجتُ إلى أن أجد طرقًا للإحساس بوجودي والشعور بتأثيري على الآخرين. فما هو العنف إلا طاقة مُنحت مادة وقوة؟

وعرفتُ أنه منذ سن مبكرة جدًّا كنتِ مضطربة بشدة

بسبب النوع نفسه من القلق الوجودي. فوجئتُ وانزعجتُ قليلًا لأن هذا الأمر أصبح يشغلكِ في وقت مبكر جدًا، لكنه الآن منطقي إلى حدٍّ كبير بالطبع. كنت مهووسة بالموت باستمرار، تطرحين أسئلة حول ما سيصبح عليه جسدك، أين ستذهبين، هل ستتبخرين تمامًا يومًا ما، تتفككين وتختفين؟

ذات ليلة، حين كنت في التاسعة أو العاشرة من عمرك، خرجتُ وأمك لتناول العشاء وعدنا إلى المنزل لنجد جليسة الأطفال خارج الحمام على الأرض. كانت فتاة مراهقة وكان من الواضح أنها مضطربة. لقد شاهدتِ فيلمًا بعنوان «*The Invisible Man*»، مع الممثل «كلود راينس»، وكان فيلمًا بالغًا للغاية بالنسبة إلى سنوات عمرك. كنتِ بالداخل، رأسك فوق المرحاض، تتقيئين وتبكين، في نوع من اليأس الروحي، تحاولين التقاط أنفاسك، بالكاد تقولين كلامًا مفهومًا:

- فَك الضمادات حول رأسه، يا أبي، ولم يكن هناك شيء، لم يكن هناك شيء بالداخل، ما من رأس، ما من شخص، ما من شيء هناك. أين ذهب؟ هل كان هنا على الإطلاق؟ هل هناك شيء بداخل أجسادنا حقًّا؟ هل نحن موجودون؟ هل نحن لا شيء؟ أشعر أنني لا شيء. لا أريد أن أكون لا شيء.

وبعد ذلك ستبكين وتتقيئين أكثر، استمر هذا لمدة يومين،

كما لو أنكِ تُستنزفين بفعل حمًى وجودية.

والآن أنا مُرغم على السؤال، من الذي جعلكِ لا شيء؟ ليست لديَّ أعذار، بما أنني عرفتُ جيدًا العواقب المدمرة لعدم كوني منظورًا، للاختفاء في عائلة لم يُعبر أفرادها قَطُّ عن أي فضول بشأن الشخص الذي كنتُ عليه حقًّا، لكنهم حددوا هُويتي استنادًا إلى توقعاتهم ومخاوفهم واحتياجاتهم. الفضول أحد أشكال الكرم. يكمن بداخله الاعتراف بالآخر، يتطلب ثقب القشرة العبثية الشائنة للاعتداد بالذات. هل وُجد حقًّا أي شخص غيري من قبل؟ هل اختبرتُ أو شعرتُ أو أدركتُ أي أحد خارج ذاتي؟ هل عرفتُ التعجب؟

حين كنتُ طفلًا شعرت بالرهبة أمام السماء والنجوم وروعة الخلق. لكن سرعان ما ثُبِّط كل ذلك ووُجِّه إلى الأداء. لم يكن هناك وقت للتلكؤ في تأمل خامل. كنت هنا مثل بقية الصبية لتحسين نفسي، وللإنجاز، وللتقدم والفوز. لم يكن عالم الغموض والعجائب هذا موضع تقدير أو تبجيل. كان موضع احتلال، وامتلاك، وقهر.

يحمل التعجب في طياته التواضع. الاستسلام لما هو أكبر وغير معروف، لذلك الكون الشاسع الغامض حيث أنتَ نقطة ضئيلة فيه. لم يُسمح لي أن أكون جزءًا ضئيلًا من أي شيء. كان عليَّ أن أكون بالأعلى، الأفضل، على القمة.

أتذكر أنني كنتُ في الخامسة من عمري تقريبًا حين اختبرتُ وجود عصفور صغير في يدي (سقط من شجرة)، شعرتُ بقلبه بالغ الصغر ينبض في قبضتي ذات السنوات الخمس. كان قلبي ينبض بالسرعة نفسها تمامًا. من صنع هذا الطائر، من ابتكر الأجنحة والمناقير والمخالب؟ هل وقع في مشكلة مع أمه؟ هل ألقت به على الأرض؟ هل كان حادثًا؟ هل هو حزين؟ هل هو مكسور؟ لماذا لا يستطيع الطيران؟ هل سيعلمني كيف أطير؟

كنتُ مذهولًا، مرعوبًا، في حالة رهبة. كان وجوده في يدي على هذا النحو بالغ الحميمية غير محتمل تقريبًا، لكنني لم أستطِع أن أتركه، لن أتركه. كنتُ في حوزة معجزة. كان لديَّ سر الكون ملفوفًا في مفصل إصبعي. توقف الزمن بأكمله. كنتُ طائرًا. كنتُ نشوة مأخوذة في تيار خفي من الرهبة. كنتُ كل شيء.

وبعد ذلك أوقظتُ بخشونة، أمي تصرخ في خوف:

ـ ماذا تفعل يا «آرثر»؟ اترك هذا الطائر القذر من يدك. إن هذه الطيور تحمل أمراضًا رهيبة. أنت مقزز.

هزتني بقوة وأسقطت الطائر من يدي. هوى متقلبًا وهبط على الأرض بشكل سيِّئ. لم يتحرك بعد ذلك ولم يُسمح لي

أن أساعده أو أقترب منه.

كان الأمر أكثر مما استطعث احتماله، وانفجرث بالبكاء. بكيتُ وبكيتُ، وكانت تلك أعظم زلة على الإطلاق. البكاء وإظهار الضعف. كان هذا أسوأ من الاستغراق في الرهبة والاستسلام لطائر صغير.

وتسألين، ما الحياة من دون تعجب؟ إنها باهتة وموحشة. إنها حياة من اليقين المفروض والروتين الإجباري. إنها خالية من الروعة والإثارة مع مدخل للاندهاش مغلق بإحكام.

إذن، ما الذي يحل بشغف الرجال وفورتهم العاطفية بعد ذلك؟ يُعاد توجيههما مبكرًا إلى الهيمنة والعدوانية والتنافس.

وهو الأمر الذي يقودني إلى الازدراء والقسوة اللذين أسكنتُهما زوجكِ الأول. فجأة، بعد أعوام من الامتناع عن الزيارة، أحضرتِ إلى المنزل رجلًا كنت تخططين للزواج منه. رجل أيرلندي كاثوليكي تافه بالكاد بإمكانه التهجئة. ساقِ التقيتِه في حانة متواضعة ما، حيث تعملين نادلة. وغد في أفضل الأحوال. ربما نصاب أو لص. (حسنًا، لم يكن هناك دليل على ذلك، لكنني عاملته بهذه الصفة).

قالت أمك إنه كان وسيمًا وجذابًا، لكن بالنسبة إليّ بدا اختيارك اعتباطيًا كإحضار كلب ضال وجدته في الشارع إلى المنزل. لم يكن من الممكن إجراء محادثة معه. لكن هل حاولتُ؟ لم أفعل. كان وجوده المفاجئ تطفلًا أشد إزعاجًا. كان من الواضح أن السبب الوحيد لزواجك منه هو العودة إليّ. كان كل شيء لم أكن عليه. غير متعلم، وفظ، وأخرق، ومقلع عن الشرب. مع ذلك، على الرغم من أنني كرهتُ هذا الجِلف، شرعتُ على الفور في جعله حليفي. على العشاء، أخبرتُه أنكِ بدوتِ شيئًا ما لكنكِ في الحقيقة شيء آخر. اعتقدتُ أنه من الأفضل أن يكون مستعدًا ويعلم ما يورط نفسه فيه. تصرفتُ مثل حامٍ للرجل على الرغم من أنني لم أكن مهتمًا به على الإطلاق. ثم أمتعته بسعادة بتفاصيل حميمة عن تجاوزاتك المتعمَّدة. أخبرته بالأمور الرهيبة التي فعلتها حين كنت طفلة ومراهقة، متضمنًا في كل منها شخصيتك المشبوهة. اشتكيتُ من أنكِ كنت الطفلة الأشد صعوبة في التعامل معها وقد استفززتِني للتصرف بما يناقض طبيعتي.

تقبلته كجندي شقيق في جيشي لأهزمك. حتى أمك ارتعبت بسبب هذا. لقد أُخذتِ على حين غرة، كنت متفاجئة، ومُهانة، وتشتعلين غضبًا. كنتُ أزرع بذور الشك في الرجل الذي كنت ستتزوجينه، أعرض طبعك الوضيع وألخص إخفاقاتك. استمر هذا لمدة ساعة تقريبًا. في البداية

ظللت تضحكين، محاولة تحريف ما كنتُ أقول وتحريك المحادثة في اتجاه آخر. لكن لن يردعني شيء. تابعتُ بانتقام حتى وجهتُ الضربة القاضية. أخبرتُه أنني كان عليَّ أن أنفض يديَّ منكِ، وأنني سأفهم، بعد سماع كل هذا، إذا كان عليه أن يتراجع أيضًا.

لكن الزفاف استمر بطريقة ما.

أراكِ الآن في الثالثة والعشرين، تقفين عند مذبح منزلي الصنع مرتدية ثوب زفاف مهلهلًا وجدتِه في متجر غالٍ في تخفيضات لبيع الأغراض الممزقة، في زفاف رُتب كيفما اتفق من خلال التسول والاقتراض. لقد رفضتُ الدفع. لم يكن هناك سوى مقبِّلات رخيصة ولم تكن ثمة خمور قوية. تقفين هناك محاطة بمجموعة متباينة من الأصدقاء والفنانين المكافحين، بمراسم يؤديها كاهن مبتذل من ديانة لم يسبق لي أن سمعت بها والتي لم يذكر فيها الرب قَطُّ. أراكِ تتزوجين رجلًا كانت أكثر صفاته إقناعًا أنه لم يضربك. أسمعك تقدمين خليطًا متعذر التفسير من عهود زواج لم تشمل الإخلاص. (أعرف الآن أنه لم يخطر ببالكِ قَطُّ أن تتوقعيه أو تطالبي به). أراك تقفين مع فتى مراهق، ابن زوجك المقبل، الذي التزمت بتبنيه والقيام نحوه بواجبات الأم. كنت على نحوٍ ما تمنحينه أشد ما احتجتِ إليه.

هناك رجل أسود يرتدي زيًّا أفريقيًّا يعزف على

الساكسفون، لحنًا حزينًا مناسبًا لجنازة أكثر من حفل زفاف. تحضرني هذه الموسيقى الآن، عويل تعيس، وأنا أسير معكِ إلى نهاية ممشى العروس بدائي الصنع. أنتِ تمسكين ذراعي. ربما كانت المرة الأولى التي تلمسينني فيها منذ أعوام. في البداية، رفضتُ المشاركة في هذه الطقوس الهزلية، أن أزوجك لهذا الأحمق. لكن في اللحظة الأخيرة، رق شيء بداخلي. بكل صدق، كانت الفرصة المثالية لاستعادة ملكيتي وسلطتي. وبينما أسير معكِ خطوة بخطوة خلال حشد المتفرجين على الزفاف، يفزعني أن أقول إنني شعرتُ برضا عظيم لمعرفة أن هذا الزواج محكوم عليه بالفشل بالفعل.

لقد اخترتِ رجلًا كان متزوجًا حين قابلتِه. أعتقد أنكِ كنت رقم ثلاثة. وحتى لو بدا أنكما تتشاركان قدرًا كبيرًا من روح الدعابة (كنتما تضحكان معًا إلى ما لا نهاية، الأمر الذي ضايقني بشدة) وأنكما قادران على إيجاد السلوى والكيان في إقلاعكما التعاوني عن الشرب، كنت أعرف أنه لن يستطيع ولن يكون صادقًا أو مخلصًا لكِ.

لكن الأهم من ذلك أنني أعرف أن هذا الزفاف باطل كليًا بما أنكِ ما زلت متزوجة بي. أمسكت ذراعك بقوة أكبر. قطعنا عهدًا صامتًا في الظلام حين كنتِ في الخامسة فحسب. حتى لو تشاركتِ جسدك مع هذا الأبله، لن يلمسك

حقًا أبدًا. لن يشعر أبدًا بانتصار وقدسية اكتشاف النشوة لأنكِ قد حصلت عليها بالفعل. لن يدخل غرفة الحبيب أبدًا لأنني أشغلها. وهذا في النهاية سيقوده (وكل الآخرين الذين سيأتون من بعده) إلى الغضب والإلهاء، هذا الشعور بأنه لن يستطيع حقًا الحصول عليكِ أبدًا.

في البداية، سينجذب إلى الأمر كنوع من التحدي. كل رجل يحب خوض معركة. لكن بعد ذلك، بعد مُضي الوقت، سيجعله الأمر يشعر بخواء، وغباء، وفشل. وحين يدرك أنكِ لن تمنحي نفسك له أبدًا، حتى لو تظاهرتِ بفعل ذلك، سيثأر ويبذل كل ما بوسعه لإيذائك. يُضعفك ويُدمرك، ويخونك مع نساء أخريات، وفي النهاية يتركك من أجل صديقتك المقربة. كانت هذه هي الأفكار السامة التي نشرتها في الجو الهش لحفل زفافك البائس بالفعل. كانت هذه هي الطاقة المسببة للعجز التي دسستها مثل سم خفي في جلدك وأنا أمسك ذراعك. لم يكن هذا والدك الذي يسير معكِ بهدوء ولطف إلى آخر الممشى للقاء حبيبك، لكن بدلًا من ذلك كان مفترسك يخطط ويسير بكِ إلى ذبحك المحتوم.

الساكسفون، أعلى صوتًا الآن، ينوح ويصيح. تتحطم موجات الصوت على هذه الجدران الرطبة. آه أيها الحزن، إعصار من الحزن. يدور بي ويُهشمني على صخور وجلاميد مشحوذة بالذنب، متشابكة في حطام وأنقاض لا نهائية. لقد

نال مني هذا الحزن الآن، هذا الحزن. الأمواج تنحسر. هذا هو الشق. قشرة الرجل تتصدع. أي نوع من الأنذال كنت؟ أي نوع من الدمار أحدثت؟ لقد كذبت وكذبت على نفسي وعليكِ.

لعنتُ مستقبل حبك. في الخامسة من عمرك أخذت جسدك. لم تمنحيه لي. لوثت عذوبتك. اقتلعت البوابات الذهبية الدفاعية من حديقتك. خنت ثقتك. أعدت ترتيب كيميائك الجنسية وأساس رغبتك. انصهر الخطأ والإثارة معًا إلى الأبد. صنعت دنَسي. تركت علامتي النتنة. أصبتك بالعدوى. بغزو جسدك واجتياحه، قتلت اشتهاءك مبكرًا جدًا. لم تمنحيني ولم تستطيعي أن تمنحيني الإذن. لم تكن هناك موافقة. أنتِ لم تغريني بتنورتك الداخلية القطنية. كنت طفلة فاتنة فحسب.

أفرطتُ في تحفيز جسدك ذي السنوات الخمس وزرعت بذور الفورة والإثارة. ستتجاوزين الحدود في المخاطرة بنفسك، تتعاطين الهيروين، تقفزين من على الجسور، تقودين بسرعة مائة ميل في الساعة.

سلبتُك العادي. دمرت مفهومك عن العائلة. أجبرتك على خيانة أمك. عشتِ في شعور أبدي بالذنب وكراهية الذات. خلقتُ التسلسل الهرمي وعدم الثقة والتنافس العنيف بينكِ وبين أشقائك. لن يتعافى أيٌّ منكم من هذا.

سلبتُكِ حق ممارسة السلطة على جسدك. لم تتخذي أي قرارات. لم تقولي نعم. كان هذا من اختلاقي من أجل إرضاء احتياجاتي. كنتِ في الخامسة من عمرك. كنتُ في الثانية والخمسين. لم يكن لديكِ أي سيادة. استغللتك وأسأت معاملتك. أخذت جسدكِ. لم يعد لكِ. جعلتك سلبية. أعطيتِه إجباريًا لكل من أراده لأنني علمتك أنكِ يجب أن تفعلي ذلك. أجبرتك على الخروج من جسدك، ولأنكِ كنت فاقدة الحس ومُنتزَعة من مكانك الطبيعي، كنت عاجزة عن حماية نفسك. عرَّضت سلامتك وقدرتك على الدفاع عن نفسك للخطر. فعلت ذلك إلى درجة أن الاغتصاب هو ما أصبح يثيرك. انتزعت حدودك الضرورية إلى درجة أنكِ لم تعرفي قَطُّ ما الذي كان ملكك أو متى تقولين لا أو كيف تقولين توقف. مزقت جدران مهبلك الرقيقة وجعلته عرضة للمرض والعدوى.

لم يقُل جسدك نعم، ولم يستطِع أن يقولها. كانت هذه كذبة مريحة قلتها لنفسي. لم تعلمي أنها كانت ممارسة جنسية. أخذت ما احتجت إليه بإقناع نفسي أنكِ تحتاجين إليه أيضًا. استغللت عشقك. أجبرتك على السرية، على الكذب على أمك، على عيش حياة مزدوجة. قسَّمك هذا إلى اثنين. جعلتك تشعرين كأنكِ عاهرة. جعلتك تشعرين أنكِ لن تكوني جديرة أبدًا بحب شرعي. جعلت الحميمية خانقة.

تركت سمِّي بداخلك.

دمرت ذاكرتك بجعلك تريدين نسيان كل شيء. أثَّر ذلك على ذكائك وعلى قدرتك على استيعاب الحقائق وخوض الامتحانات. سرقت براءتك. أضعفت قوة حياتك وجعلتك تشعرين أن نشاطك الجنسي كان سببًا للأمور السيئة. استخدمت كيانك وجسدك لخدمة نفسي.

فعلت كل هذا. آه أيها الساكسفون، أخرجني. أخرجني.

ببطء، بألم، أزحف مثل سلطعون أنهكه الطقس ليخرج من البحر الذي صار الآن هادئًا ومتراجعًا. أنهارُ على الرمال الدافئة. أستلقي هناك منهكًا ومكسورًا. أنا هناك منذ أيام أو شهور أو أعوام. تشكلت مرة أخرى. أشعر بنفسي. اختفت ملابسي. وكذلك جنسي. لديَّ نهدان صغيران وساقان أقصر وقدمان أصغر. معدتي لينة. هناك شامتان فوق عيني اليسرى. هذا وجهك، يا «إيف». هذا جسدك. أنا بداخله. ألاحظُ دمًا.

أنفي ينزف. عنقي تؤلمني. هناك رضوض بسبب تعرُّضي للخنق. أشعر باللسع في طرف مؤخرتي بسبب المضرب. هناك كدمات على فخذيَّ. ندوب وجروح تظهر مثل تكتلات المصاب بالجذام في جميع أنحاء جسدي. أنا الجرح وصانع الجرح. أنا أحترق.

أتدحرج على الرمال، ألقي نفسي في البحر. يُهيج الماء المالح القطوع والجروح ويلهبها. مهبلي يشتعل. أمسكه وأرتج وأصرخ وأصيح ويخرج من فمي صوتك، صوت فتاة صغيرة مُعذَّب.

- اجعله يتوقف. اجعله يتوقف.

الشاطئ خاوٍ وشاسع، ما من طائر، ما من صوت. هل يعرف أي أحد أنني هنا؟ هل يكترث أي أحد؟ صوت يدق في رأسي:

- لن يأتي أحد. لن يأتي أحد.

وينفتح باب خفي، وأسقط بداخله. أسقط وأسقط في الفراغ، في الغياب، في «الليمبو» الخاص بالمطرودين.

أنا لا شيء. ليست لديَّ عائلة. ليس لديَّ مكان. ليس لديَّ أب. ليست لديَّ أم. أنا شر. أنا خزي. أنا عار.

يا إلهي، «إيف»، أنا أرى الآن، لقد كنت أطوف منذ واحد وثلاثين عامًا في «الليمبو» المعذِّب الذي خلقته بداخلك، في كهف الوحدة الفظيع الذي لا يمكن أن يملأه شيء أو شخص، في هاوية انتظارك اليائسة.

آه، ماذا يحدث الآن؟ أي شظايا ضوئية ستنجح في تخطي الظلام؟ أي تخطيطات لامعة؟ نجوم. نجوم. ملايين منها. أنا شديد الامتنان للنجوم.

كل منها وجه صغير لامع، يميل للخارج كي يُلاحَظ أو يُعتز به أو يُرى. عينان مترقبتان ووجنتان مستعدتان. كل وجه يؤدي جِيَلًا متوقدة على أمل تبنّيه أو استعادته. كل نجم طفل نوراني فوَّته أهله.

***

«إيف»،

دعيني أقول هذه الكلمات:

أنا آسف. أنا آسف. دعيني أجلس هنا في الساعة الأخيرة. دعيني أفعل الأمر بشكل صحيح هذه المرة. دعيني أترنح بفعل حنانك. دعيني أخاطر بالهشاشة. دعيني أصير عرضة للأذى. دعيني أضيع. دعيني أبقى ساكنًا. دعيني لا أحتل أو أقمع. دعيني لا أقهر أو أدمِّر. دعيني أغتسل في الفرح. دعيني أكون الأب.

دعيني أكون الأب الذي يعكس طيبة قلبك ليردها إليكِ. دعيني لا أقدم أي مطالبات. دعيني أشهد ولا أجتاح.

«إيف»،

أحررِكِ من العهد. أبطل الكذبة. أرفع اللعنة.

أيها الرجل العجوز، ارحل.

شكر

لم أكن لأكتب هذا الكتاب من دون الصديق الحبيب «مايكل كلاين»، مُوَلّدي صاحب الصوت الأجش الذي فهم ما كنت أفعله حين لم أستطِع ذلك، وكان لديه إيمان حين كنت شديدة القلق إلى درجة العجز عن التنفس. أشكرك لعمق إنصاتك ونظراتك الثاقبة التي لا تُقدر بثمن ولمجرد وجودك هناك، وجودك هناك.

أشكرك، «جون هاري»، على وقتك، ووجهات نظرك الثمينة، وعلى بقائك معي خلال الدرب الصعب. أشكركِ، «سو جراند»، لمنحي وسيلة لتسمية الرعب والهيبة وتأطيرهما، لسنوات عديدة من الرؤى التي حررتني من الجحيم.

أشكرك، «جيمس ليسيسن»، لكونك أفضل صديق على الإطلاق وعلى إيمانك بعمق شديد، و«مونيك ويلسون» على ثباتكِ ولطفك وحبك العميق. و«باولا آلن» للإنصات والمعرفة. وملاكي الأم «كارول بلاك» لإرشادكِ وتوجيهك، و«جينيفر بافيت» للارتحال معي وجعل هذا الكتاب ممكنًا خلال أسفارنا.

شكرًا لـ«كريستين شولر ديشريفير»، صديقتي الشجاعة

والجميلة، وجميع أخواتي في مدينة بوكافو اللاتي علّمنني كيف أحول الألم إلى قوة.

شكرًا لدائرة الأصدقاء والزملاء المذهلين الذين مثّل حبهم وعبقريتهم حماية وإلهامًا: «رادا بوريتش»، و«بات ميتشل»، و«ديانا دي فيج»، و«أروندلاتي روي»، و«جين فوندا». «نايومي كلاين»، و«ثاندي نيوتن»، و«لورا فلاندرز»، و«كيمبرلي كرينشو»، و«أليكسا غارسيا»، و«نيكوليتا بيلي». «زيلا آيزنشتاين»، و«إليزابيث ليسر»، و«ديفيد ستون»، و«ديان بولوس»، و«ديان بورجر»، و«رايان ماكيتريك»، و«جورج لين»، و«نانسي روز»، و«فرانك سيلفاجي»، و«هارييت كلارك»، و«زويا»، و«أديسا كروباليجا»، و«بيتر بافيت»، و«مارك ماتوسك»، و«روزا كليمنتي»، و«توني بورتر»، و«تيد بانش»، و«فرح تانيس».

فريقي المذهل في «*V-Day*»: «سوزان سوان»، و«بورفا بانداي كولمان»، و«كارل تشينج»، و«ليلى رادان»، و«أنجو كاستوريراج»، و«كريستينا شيا»، («مو» و«ماما سي»). شكرًا لتحريك هذه الحركة العالمية وتعليمي كل يوم كيف يكون التضامن والتعاون.

أشكرك ابني الغالي، «ديلان ماك ديرموت»، وابنتي، «ماجي كيو»، وجدتيَّ المذهلتين «كوكو ماك ديرموت» و«شارلوت ماك ديرموت». أنتم قلبي.

«توني مونتنييري» لكل شيء فعلتَه سمح لي بالكتابة وللُطف المطوي في كل تصرف.

أنا في غاية الامتنان لمحررتي العبقرية «نانسي ميلر» لإيمانها المتوهج بهذا الكتاب، وتحريرها الممتاز والدقيق، ولدفعي لمزيد من التعمق.

بورك الفريق الرائع في «بلومزبري» و«إيمي باتاجليا».

شكرًا لكم، «ستيفن باركلي» و«إليزا فيشر» وجميع الرائعين في «باركلي إيجنسي».

ممتنة على نحوٍ خاص لـ«تشارلوت شيدي»، وكيلة أعمالي الاستثنائية لأربعة وعشرين عامًا. أنحني في عرفان لثباتك، ولإيمانكِ بعملي، ولولائكِ، ولطرق قتالك الشرسة. أحبكِ.

أودُّ أن أعبر عن شكري لأخي، «كورتِس»، لكبر قلبه، لنجاتنا مما صمدنا أمامه، لمشاركة تاريخ وذكريات توسلث من أجل اعتذار.

لآلاف النساء اللاتي التقيتُ بهن على مدار ما يزيد على عشرين عامًا ماضية في مخيمات اللاجئين، والمستشفيات، ومناطق الحرب، والسجون، والمسرحيات، والمراكز، والكليات، والمدارس، والملاجئ الآمنة، وأماكن العبادة،

اللاتي شاركن قصصهن بسخاء وألهمنني كل يوم لمواصلة القتال حتى تصبح بناتنا متساويات، وحرّات، وآمنات.

لكل الرجال الذين آذوا النساء، ربما يلهمكم هذا الكتاب لأداء حساباتكم العميقة والشاملة، للمحاسبة، والاعتذار لنتمكن أخيرًا من تغيير هذا العنف وإنهائه.

الكاتبة

«إيف إنسلر» كاتبة مسرحية، ومؤلفة، وفنانة أدائية، وناشطة، فائزة بجائزة «توني». كتبت الظاهرة العالمية الأكثر مبيعًا، مسرحية «The Vagina Monologues» («مناجاة المهبل»)، التي فازت بجائزة «أوبي»، ونُشرت بـ٤٨ لغة، وعُرضت في ١٤٠ دولة. وهي مؤلفة لعدد كبير من المسرحيات والكتب، بما فيها أفضل الكتب مبيعًا وفقًا لجريدة «نيويورك تايمز»، «I Am an Emotional Creature» («أنا مخلوق عاطفي»). ومؤخرًا، حولت مذكراتها «In the Body of the World» («في جسد العالم»)، التي حظيت بإشادة كبيرة، إلى مسرحية لاقت استحسانًا نقديًا واسعًا. أدت مسرحيتها «The Vagina Monologues» إلى مولد «V-Day»، وهي حركة ناشطة عالمية لإنهاء العنف الجنساني. ومن خلال الإنتاج المربح لأعمال «إنسلر» الفنية، جمعت حركة «V-Day» أكثر من ١٠٠ مليون دولار وموّلت أكثر من ١٣٠٠٠ برنامج مجتمعي لمكافحة العنف وملاجئ آمنة في مختلف أنحاء العالم. وهي أيضًا مؤسّسة «One Billion Rising»، أكبر حملة عالمية جماهيرية نشطة لمكافحة العنف ضد النساء والفتيات. «إنسلر» مؤسّسة مشارِكة، إلى جانب «كريستين شولر ديشريفير» والفائز بجائزة

نوبل للسلام في عام ٢٠١٨ الدكتور «دينيس موكويجي»، لـ«City of Joy» («مدينة الفرح»)، وهو مركز ثوري للنساء الناجيات من العنف في جمهورية الكونغو الديموقراطية. اختيرت واحدة من بين ١٥٠ امرأة غيرن العالم وفقًا لمجلة «نيوزويك» وواحدة من أكثر ١٠٠ امرأة مؤثرة وفقًا لجريدة «الجارديان». تعيش في نيويورك.

المترجمة

سها السباعي مترجمة مصرية، وُلدت في القاهرة عام ١٩٧٤. حصلت على درجة الليسانس من كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة. ترجمت: «رحلة هاملت العربية - أمير شكسبير وشبح عبد الناصر» تأليف «مارجريت ليتفين»، و«قراءات في أعمال نوال السعداوي» تأليف «إرنست إيمونيو» و«مورين إيك»، ورواية «حُب» تأليف «هانة أورستافيك» (ترجمة مشتركة مع شرين عبد الوهاب). صدرت لها لدى الكرمة للنشر رواية «حرائق صغيرة في كل مكان» لـ«سيليست إنج».

---

(1) في التراث الكاثوليكي القروسطي، هومكان على هامش الجحيم تهيم فيه أرواح غير المعمَّدينفي انتظار الخلاص. وأصبحت الكلمة تعني، في اللغة اليومية، حالةمن الإبهام والضبابية الشديدين. (المترجمة).

(2) سفر التثنية، ٢٩: ٢٤-٢٨. (المترجمة).


إيف إنسلر
Telegram:@mbooks90
الاعتذار